نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني



د. نعيم اليافي   د. خليل الموسى

نضـال العـرب والأرمـن

ضـد

الاستـعمار العثمـانـي

❑ سلسلة الدراسات الأدبية والتاريخية ـ 4 ـ

❑ نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني

❑ تأليف : د . نعيم اليافي و د. خليل الموسى

❑ الطبعة الأولى 1995

❑ الناشر : ◆ دار الحوار للنشر والتوزيع

اللاذقية ✉ 1018 ☎ 422339 ـ سورية

◆ نادي الشبيبة السورية ـ اللجنة الثقافية

حلب ✉ 3699 ـ سورية

❑ تصميم الغلاف : الفنان نرسيس هامبارتسوميان

سلسلة الدراسات الأدبية والتاريخية -4-



نضال العرب والأرمن

ضد

الإستعمار العثماني

تأليف

الدكتور
نعيم اليافي

الدكتور
خليل الموسى

المقدمة

لم تكن الغاية من تأليف هذا الكتاب اعادة ما أنتجه المؤرخون عن طبيعة العلاقات بين الشعوب الثلاثة .. العرب والأرمن والأتراك العثمانيين ولا تتبعها وما انتهت إليه ،فقد ألفت في ذلك الكتب الكثيرة وما تزال تؤلف ، بقدر ما كانت الغاية اراءة مشهدية لما حدث ، واستخلاص النتائج مما حدث ، والتطلع إلى الأمام بعدما حدث ، من هنا وطدنا عزيمتنا على اختيار الجوانب الملائمة من العلاقات التاريخية حتى نحقق بها غايتنا ، ومن هنا أيضاً كانت خطتنا التي رسمناها للكتاب في فصوله المتعاقبة ومادتها المتداخلة في آن .

إن علاقتنا بالعثمانيين الأتراك علاقة تاريخية مضت بمثل ما مضت عليه من سطوة وسيطرة وإذلال واحتلال ، ذقنا خلالها ما ذقنا نحن العرب وغير العرب كلّ أنواع الظلم والاضطهاد والاستغلال ، لذلك ظلت صورة التركي في أذهاننا صورة الرجل الكريه ، الغاصب والمستلب للأرض والقيم والكرامة ، أما علاقتنا بالأرمن فهي علاقة جغرافية نتعايش عبرها فوق تراب واحد وتحت سماء واحدة ، يضمنا وطن ، وتحتوينا صلات أخلاقية تشد بعضنا إلى بعض ، ثم إننا كلانا خضع لمحتل واحد ذاق منه الأمرين ، ناضلنا من أجل حقنا في الحياة معاً ، وجاهدنا في سبيل الاستقلال معاً ، وبذلنا الغالي والرخيص للوصل إلى هويتنا وانتزاعها عنوة معاً ، فهل علينا جناح أو تثريب أن نكتب على نضالنا المشترك نحن العرب والأرمن ضد مستعمرنا الغاشم العثمانيين الأتراك ؟

لقد حاول أحدنا من قبل أن يكتب بصورة فردية أو مشتركة عن القضية ذاتها في غير شكل ، كتب عن « مجازر الأرمن » وعن « جمال باشا السفاح » وعن « صورة التركي في شعر المشرق العربي » . ووجدنا أنه لا بد أن نكتب كتابنا الأخير عن « نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني » فكان هذا السفر ثمرة جهد مشترك امتد شهوراً طويلة .

وقرأنا في سبيل ذلك الكثير ، ورجعنا إلى مراجع شتى ، كنا نلتقي ونتحاور حول كلّ شيء ، سودنا مئات الصفحات ، وبيضنا العشرات حتى استقام الأمر ، فخرج العمل على هذه الصورة التي لا نظن أنها الصورة الأمثل ، ولكنّا نعتقد أنها الصورة الأبين لأنها الصورة الممكنة .

وإذا كان اقترابنا من الموضوع يبدو في بعض الأمكنة سريعاً ، وفي بعضها الآخر بطيئاً ، في بعضها أهملنا الكثير من التفاصيل والفجوات ، نوقف الزمن ونقطعه ، وفي بعضها الآخر أمهلنا الخطا وئيدة عند شيء من الجزئيات نجلوها كي تظهر واضحة لا لبس فيها ونمد الزمن ... فلأننا رأينا أن ذلك أفضل طريقة لتوظيف المنظور من أجل الهدف ، ولم يكن هدفنا الذي توخيناه سوى أمرين : أن نعيد دراسة التاريخ عبر سيرورته لكي نعتبر ، وأن نقرأ الجغرافية عبر المكان وعبقرية المكان حتى نفهم ملياً ونبدع ، وفي لقاء التاريخ بالجغرافية ، لقاء الزمان بالمكان يتلامح المستقبل ، وتتخلق الصيرورة .

يبقى سؤال عن أسلوب التعبير ، ومنهج حكم القيمة ، على المستوى الأول كان من الصعوبة بمكان أن نفصل ذواتنا عن موضوعنا ومفردات تعبيره ، لذلك شابت بعضه انفعالات إنشائية عملنا جاهدين أن نتخلص منها بعرض الأمور بصورة توصيف موضوعية ، أما على المستوى الثاني فكان الأمر أصعب بالنسبة إلينا ، ولم نكن نستطيع البتة أن نمنع أنفسنا من إصدار الأحكام ونحن نتلظى في حمأة الصدام

ونلتهب بنار النضال ، ومع ذلك جاءت الأحكام أقرب إلى التوازن المسوغ والمعلل منها إلى الإطلاق المتحيز غير المقيد .

هل لنا نحن الشعوب الثلاثة أن نتطلع نحو الأمام ، إلى الغد الأفضل ؟ أجل ، وهو شيء ممكن ومرجو ، شريطة أن نتعلم من التاريخ ، وهو طموح توخيناه من هذا الكتاب .

الأول من آذار عام 1995 .

المؤلفان

نعيم اليافي و خليل الموسى

الفصل الأول: تحديدات أولية

العثمانيون والأتراك * العرب والأرمن

العلاقات ومسألة النضال

من هم العثمانيون ، ومن هم الأتراك الطورانيون ، من هم العرب ومن هم الأرمن ، وكيف كانت العلاقات بينهم ، وما مسألة النضال والنضال المشترك الذي خاضه العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني ؟ .. هذا ما تحاول الصفحات القادمة أن تجيب عليه .

يذهب معظم المؤرخين إلى أن العثمانيين بعض من قبائل الغز أو الأغز جاءت من أواسط آسية ، وكان المعتصم الذي تولى الخلافة بعد أخيه المأمون سنة 833 م أحاط نفسه بحرس خاص من الجنود الأتراك مؤلف من أربعة آلاف رجل ، وأصبح هذا الحرس بمرور الأيّام صاحب الأمر والنهي في العاصمة بغداد ، وشكا سكان المدينة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع والطرقات فوق صهوات جيادهم ، ويجترحون الجرائم والآثام دون عقاب ولا رادع ، ومن أجل ذلك بنى لهم المعتصم مدينة سرَّ منْ رأى .

وقويت شوكة الأتراك فاستولوا على مدينة بخارى سنة 990 ، وقضوا على الأسرة السامانية عام 999 ، وقاموا بعد ذلك بقيادة محمود سبكتكين بالاستيلاء على جميع بلاد الفرس إلى نهر جيحون . يقول ديورانت إن حروبهم تميزت بالعنف والقسوة والسلب والنهب ، وانتقلت المملكة إثر وفاته إلى السلاجقة الأتراك فتمكنوا بقيادة زعيمهم طغرل بك من احتلال بغداد عام 1055 بعدّ أن هزموا البويهيين ، وتمكن هؤلاء من أن يفتحوا أرمينية عام 1060 ويفتحوا مدينة القسطنطينية (1) بقيادة محمد الفاتح بعد ذلك عام 1453 ويستولوا على بلاد الشام ومصر بين عام 1516 و 1517 .

وهكذا دخلت الأمتان العربية والأرمنية تحت سيطرة الحكم العثماني ، وانعكست السيطرة بشكل مدمر على اقتصاد الشعوب المنضوية تحت الراية العثمانية التي قامت من

خلال الحرب ومن أجل الحرب ، وخاصة بعد ضعف سلاطين الدولة ، فطفقت تنهب ثروات البلدان والقوميات المغلوبة ، ولم تكن الدوائر لتهتم باقتصاد ممتلكاتها إلا لخلق ظروف تسمح بنهب أكبر قدر ممكن لمصلحة قواتها المسلحة والطبقة الاقطاعية ، وقد أخذ هذا النهب يتزايد يوماً بعد يوم مع الاخفاقات العسكرية المتتالية ، وفساد الأنظمة والقوانين ، وتحكم الولاة التعسفي، حتى إن كثيراً من الأراضي الزراعية في الولايات العربيّة تحولت إلى صحارى بسبب هجرة الفلاحين وعدم قدرتهم على زراعة الأراضي جراء امتصاص جهودهم واستغلال وضعهم ، وزاد الطين بلة تدخل قناصل الدول الأجنبية في شؤون الولايات ، فأخذت هي الأخرى تمتص جهود الرعايا ، واتجه رأسمال شركات هذه الدول إلى مدِّ الخطوط الحديدية لأغراض استعمارية سياسية واقتصادية . وهذا ما أثر في الانتاج الصناعي ، وسهّل تكيف اقتصاد الولايات وفق متطلبات السوق الأوروبية وسيطرة الغرب الرأسمالي على التجارة الخارجية ، وبدأت الدولة العجوز بمنح الشركات الأجنبية بعض الامتيازات لاستغلال الثروات الطبيعية ، وظهر طابع الحكم التركي اللصوصي في ميدان السياسة الاقتصادية ، فغدا الشعبان العربي والأرمني بين جزارين : الحكومة من جهة والشركات الأجنبية من جهة أخرى إضافة إلى نهب الأراضي الزراعية بناء على قانون عام 1858 الذي حرمت بموجبه الدولة العثمانية من التجمعات الزراعية في ممتلكاتها التقليدية للأراضي ، وينص القانون على أن كلّ أرض صالحة للزراعة لا تتم حراثتها مدة سنتين متتاليتين تعدّ سائبة لا يملكها أحد ، وتنتقل ملكيتها إلى الدولة ، وهكذا تم النهب الجماعي للأرض ، واستولى السلطان عبد الحميد الثاني على ممتلكات جديدة حتى أصبح من كبار الملاك ، ولم يكتف بذلك بل وضع يده على الثروات الجوفية ، وحذا حذوه ذوو النفوذ من أصحاب الرتب العليا في البطانة ، ناهيك عن الولاة والزعامات المحلية والاقطاعية التي هيمنت هي الأخرى على ممتلكات البلاد وثرواتها ، ممّا دفع الكثير من الشبان العرب وخاصة اللبنانيين في نهاية القرن الماضي للهجرة إلى أمريكة ومصر .

أما النزعة التركية ـ الطورانية فقد سادت واستشرت بعد أن تسنم الحكم رجال جمعية الاتحاد والترقي ، وهي حركة عنصرية فاشية شوفينية مرتبطة بالأنظمة الشبيهة التي عاصرتها في مبادئها وغاياتها ، كما أنها حركة توسعية لها مخططاتها الاجرامية ، وصلتها بالصهيونية

العالمية أمر أكدته الوثائق السرية ومصادر الدراسات المتعدّدة ، فعلاقاتها بيهود الدونمة في سلانيك أمر متفق عليه ، وربما كان هؤلاء هم العقول المدبرة وراء الحركة . ولا يخفى أن لمثل هذه النزعات الغالية والمتطرفة وسائل مختلفة تستخدمها للوصول إلى غاياتها ، ومن جملة ذلك الدين الذي جعلته قناعاً تخفي وراءه أهدافها البعيدة كي توهم البسطاء العاديين من الناس بأن لأفعالها بعض الشرعية .

وانطلق العنصر التركي بعد نشاط الحركة يحتقر العناصر الأخرى في الدولة ، وهو عنصر على كلّ حال لا يملك أيّ تراث إنساني ، ولم تكن له أيّة حضارة ، ويذهب « هنري مورغنطاو » السفير الأمريكي في تركية بين 1913 ـ 1916 في مذكّراته إلى أن التركي رجل متنمر وجبان ، والأتراك عنده شعب بلا حضارة ، هم أشبه بقطاع الطرق يقول :

« إنهم يفتقرون إلى ما نسميه نحن بأساسيات المجتمع المتحضر ، فلم تكن لهم أبجدية ولا مدونات كتابية ولا مؤلفات ولا شعراء ولا فن ولا عمارة ، ولم يشيدوا مدناً ولم يؤسسوا قط دولة ثابتة ، لم يعرفوا من القوانين إلا قانون الغاب ـ حكم القوة ، ولم تكن لهم عملياً زراعة ولا مؤسسات صناعية ، هم ببساطة فرسان متوحشون وغزاة ، المفهوم الأساس لنجاح القبيلة عندهم هو الانقضاض على الشعوب التي كانت أكثر حضارة منهم ونهبهم أو سلبهم » (2) .

وإذا كان ذلك من طبيعة الشعب ومن صفاته فإن مثله لا يتورع عن ارتكاب أفظع المجازر والجرائم بهمجية يندى لها الجبين الإنساني، إن مخلوقاً بغير حضارة لا يتورع عن الفتك بأصحاب الحضارة، بمعالمها ومثلها، وهو ما فعله الطورانيون مع الشعبين العربي والأرمني، لقد دفعت الظروف المختلفة الشعب العربي لأن يكون زهاء أربعمئة سنة تحت رحمتهم، فحاولوا إذلاله بشتى السبل ، وفعلوا الأمر عينه مع الشعب الأرمني الذي قيض له هو الآخر أن يكون تحت سيطرتهم ، ويروي السفير الأمريكي السابق نفسه محاولة السلطات التركية اخفاء ما جرى في مجازر عام 1915 عن أعين العالم، وما جرى كان أكبر من أن يخفى، وصار الأوروبيون يتصلون بالسفير ويقدمون إليه التقارير تلو التقارير عما ارتكب بحق الشعب الأرمني، ويقول في ذلك معلقاً (3):

« إن ما جاء في هذه التقارير يدل مباشرة بجلاء لا لبس فيه إلى أن الفسق المطلق في الطبيعة التركية المعروفة بوحشيتها ونزقها تفوّق على كلّ شيء ، حتى على الطبيعة نفسها » .

ويبدو أن هذه الوحشية لم تكن بأيّ مقياس من المقاييس مجانية ولا محايدة ، بل كانت تشبع أول ما تشبع نهم الطوارنيين إلى رؤية الدم البريء يسفك في الطرقات ، وغريزتهم السادية في قتل الرجال أو إغراقهم في البحار ليغدوا طعاماً للأسماك والحيتان ، والأطفال والشيوخ والنساء يموتون جوعاً أو برداً في البراري والأزقة يعضون الحجارة ، ويسفون الرمل والتراب ، هم بلا مأوى ولا زاد ، تنهشهم الأمراض ، وتنتشر في أجسادهم المنهكة الأوبئة والديدان ، ثم هي ـ الوحشية ـ تحقق إلى جانب ذلك أو قبل ذلك الأهداف المرسومة لسياستهم في قيام امبراطورية طورانية تمتد من الصين شرقاً إلى البلقان غرباً وكان لا بد لتحقيق هذا الحلم من القضاء قضاءً مبرماً على المسألة الأرمنية ـ أمة وقضية ـ وتتريك العناصر غير التركية في الدولة العثمانية أو القضاء عليها هي الأخرى ، ولا سيما الأمة العربيّة التي شكلت عائقاً إزاء تحقيق طموحات القومية التركية وأطماعها ، بصفتها الأمة التي تتمتع برصيد ديني كبير وحضاري أيضاً يفوق ما يطمحون إلى تحقيقه ، ويتجاوز تصوراتهم الواهمة .

أما القضاء على الأمة الأرمنية ومسألتها فإننا نجده واضحاً في البرقيات التي أرسلها وزير الداخلية طلعت باشا آنذاك إلى هذا الوالي المتنفذ أو ذاك في الولايات العربيّة ، يحض فيه على الذبح والابادة والافناء ، ومنها هذه البرقية التي وصلت إلى نعيم بك : « إن هدف إبعاد الأشخاص ـ موضوع البحث ـ (الأرمن) هو ضمان سعادة الوطن في المستقبل ، لأن أيّ مكان آخر يجري إسكانهم فيه لن يجعلهم يتخلون أبداً عن أفكارهم الملعونة ، فينبغي إذن محاولة تخفيض عددهم إلى أدنى درجة ممكنة » (4) .

لم يكن الطورانيون حريصين على الشعوب التي كانت تنضوي تحت سيطرة دولتهم ، مسلمة كانت أم غير مسلمة ، فقد أعماهم الحلم الطوراني ، وأرادوا أن يتخلصوا من الجميع بأيّة طريقة وفق المبدأ المكيافلي « الغاية تبرر الوسيلة » ، وابتدعوا من الطرق ، ما لا تقبله

آيّة أمة ذات نصيب من الحضارة فاستخدموا جميع الوسائل الاجرامية وبسرعة فائقة للتخلص من العرب والأرمن معاً ومنها الطرق المباشرة المعروفة ، وطرق أخرى يتوهمون أنها تبعد عنهم الشبهة وتبعة الشبهة ، وتدل الحوارية الآتية التي جرت بين نعيم بك وعبد الأحد نوري بك على بعض هذه الطرق التي تفضح مقاصدهم : قلت ذات يوم لنوري بك :

« ـ ياحضرة البك ! لنخفّف قليلاً إرسال المنفيين لأن الموت يهدّد كلّ سكان ما بين النهرين . وبهذه الطريقة لن يبقى أحد سوى الأشباح في هذه الأراضي الواسعة ، وقد أرسل لنا قائمقام رأس العين التماساً بهذا الصدد » .

وابتسم نوري بك وقال :

ـ يا ابني بهذا الشكل نبيد في آن واحد عنصرين خطرين ، أليس الذين يموتون مع الأرمن هم من العرب ؟ إنهم يمهدون الطريق نحو التتريك » (5) .

هذه لمحة موجزة وصورة مصغّرة عن النزعة الطورانية وأداتها المنفذة ، فمن هو الطرف الثاني ؟ وماذا نعرف عنه ؟

إن الطرف الثاني هو الإنسانية جمعاء ممثلة بالأمم التي كانت تنضوي تحت الراية العثمانية ، وأهمها العرب والأرمن والبلغار واليونان والتركمان والأكراد وسواهم ، ولكنّنا سنتوقف عند أمتين نالتا النصيب الأكبر من أحقاد الطورانيين ، وهما العرب والأرمن .

الأمة العربيّة هي الشعب الذي يتكلّم اللسان العربي ، ويعيش في البلاد العربيّة ، ويؤمن بالقيم والعادات العربيّة ، ويتحلى بالأخلاق والأعراف العربيّة من كرم وحسن ضيافة وسماحة ، وهو شعب موغل في القدم عريق في بناء الحضارات الإنسانية قبل الاسلام وبعده ، لقد مر التاريخ العربي بعصور حضارية زاهية تدل عليها المكتشفات الأثرية في بلادهم ، بدءاً بالكنعانيين والفينيقيين الذين علّموا الغرب الأبجدية إلى الفتح العربي لبلاد الشام والعراق وشمالي أفريقية ثم الأندلس ، وقد قامت الخلافة الإسلامية منذ عهد الرسول على التسامح ونشر المحبة بين الشعوب التي اعتنقت الاسلام أو التي ظلت تحافظ على دياناتها السماوية في الأرض العربيّة حتى اليوم ، وقد قامت عصور عربيّة مختلفة بعد زمن الفتح ، وهي عصر الخلفاء الراشدين ، وعصر بني أمية في دمشق ، وعصر بني العباس في بغداد ،

ناهيك عن الحكم العربي في الأندلس الذي استمر ما يقرب من ثمانية قرون ، وكان فيه الحكام العرب مثالاً للتسامح والدفاع عن الحق والعدل .

والعرب هم الذين نقلوا إلى العالم الحضارات القديمة بأمانة ، وخاصة الحضارتين الإغريقية والفارسية إضافة إلى الحضارة العربيّة ، حتى إن الكثير من المؤرخين المنصفين في العالم اعترفوا بكلّ صراحة ووضوح بأن الحضارة الحديثة لم تقم لها قائمة لولا العرب ، ويمكن للقارئ أن يتوقف لمعرفة دور العرب في بعث الحضارات الإنسانية المعاصرة عند ديورانت **(6)** في « قصة الحضارة ـ الجزء الثاني من المجلد الرابع » الذي خص الحضارة الإسلامية العربيّة به ، كما يمكنه أن يتوقف عند « الموسوعة الإسلامية » باللغات الأوروبية ، أما كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » لمؤلفته الألمانية « زيغريد هونكه » ففيه صور مختلفة عن تأثير الحضارة العربيّة في الحضارة الأوروبية المعاصرة في اللغة والأرقام والفلك والميكانيك والرياضيات والتنجيم والطب والعلوم والمنهج والترجمة والموسيقى والشعر والأدب .

وقد ابتليت الأمة العربيّة بالحكم التركي قرابة أربعة قرون ، وكان ينظر إلى العرب في بدء الخلافة العثمانية على أنهم أصحاب الرسالة الإسلامية ، ولكنّ الأتراك كانوا يخفون أحقادهم على هذه الأمة والإسلام معاً ، وخاصة في عصر الطورانيين الجدد أصحاب جمعية « الاتحاد والترقي » الذين جعلوا المملكة ميداناً لسفك الدماء على حد قول أسعد داغر ، وكان هذا الفعل الإجرامي يدلّ على النزعة الإجرامية التي ورثوها من أجداهم الطورانيين الذين سبق الحديث عنهم ، ولذلك فإن علينا ـــ هنا ـــ أن نوضح امرين يتصلان بالعرب : التعصب الطوراني والنظرة إلى الآخر .

أما التعصب الطوراني العنصري فيمكننا أن نقدّم صورة عنه في « جمعية ترك أوجاغي » أو « العائلة التركية » التي كانت ثمرة مرّة من ثمار الاتحاديين ، وقد توزعت مهمتها على أربعة فروع ، كان الفرع الأول باسم « ترك يوردي » أيّ « المملكة التركية » . وتتلخّص مهمتها بالعناية بالآداب التركية وتطهيرها من لغة العرب، والتشديد على تدريس التاريخ الطوراني القديم وإفهام الطلبة أن الترك أعظم أمة اختارتها الأقدار لسيادة العالم ، وواضح

من هذه المهمة أمران : النزعة العنصرية وصلة هذه النزعة بالنيتشوية (7) من جهة وبالصهيونية من جهة ، فالأفكار التي تنطلق منها هذه النزعات الثلاث واحدة ، وهي التعالي على الأمم الأخرى واحتقارها .

وكان الفرع الثاني باسم « ترك درنكي » أيّ « ثبات الترك » ، ومهمته بثّ الفكرة القومية بين العثمانيين وغيرهم ، وهذا يدلّ على نزعتهم في تتريك الأمم الأخرى ، أما الفرع الثالث فكان باسم « ترك بلكيشي » أيّ « العلم التركي » ، ومهمته ترجمة ا لكتب العلمية إلى اللغة التركية القديمة وبثّ الفكرة القومية في مناطق محددة ، وواضح من ذلك أنهم يريدون الإساءة إلى القومية العربيّة من خلال حروفها التي كان يكتب بها الأتراك قبل مرحلة الاتحاديين وتركيا الكمالية ، وكان الفرع الرابع باسم « ترك كوجي » أيّ « القوّة التركية » ، ومهمته العناية بصحة الترك وتقوية أجسادهم لاستخدامهم في المآرب التي يسعى هؤلاء الطورانيون إلى تحقيقها .

أما نظرتهم إلى الآخر فهي شبيهة بنظرة النازي والصهيوني إلى الآخر ، فالنازية ترى أن الهدف من خلق الله للآخرين هو أن يقوموا على خدمة الألماني لأنه العنصر الأعلى « السوبرمان » في رأيهم ، ولذلك قامت ألمانية بالحروب لإبادة هذا الآخر في الحربين العالميتين اللتين دمرتا قسماً كبيراً من أوربة والعالم ، وترى الصهيونية أن اليهود شعب الله المختار ، وقد أحلّوا لأنفسهم أن يفعلوا بالأمم ما شاؤوا ، وما فعلته الصهيونية العالمية بالشعب العربي الفلسطيني شاهد على عنصريتهم تلك ، ولا تزال أيديهم ملطخة بدم الشعب العربي في أيّ مكان وصلت إليه ، والنزعة الطورانية وليدة هاتين النزعتين ، وقد فاقتهما ، وأصاب العرب والإسلام من الطورانيين الشيء الكثير ، ويمكننا أن نلخّص ذلك في النقاط التالية :

النقطة الأولى هي احتقار الاتحاديين للعنصر العربي ، وقد نقل لنا أحمد فارس الشدياق ، وهو عثماني النزعة ، صورة عن هذا الاحتقار في كتابه « الساق على الساق في ما هو الفارياق » ، فقال :

« فأما رجالها فإن للترك سطوة على العرب وتجبّراً . حتى إن العربي لا يحلّ

له أن ينظر إلى وجه تركي كما لا يحل له أن ينظر إلى حرم غيره . وإذا اتفق في نوادر الدهر أن تركيّاً وعربيّاً تماشيا أخذ العربي بالسُّنة المفروضة ، وهو أن يمشي على يسار التركي محتشماً ناكساً متحاقراً متصاغراً متضائلاً .... فإذا عطس التركي قال له العربي : رحمك الله ! وإذا تنحنح قال : حرسك الله ! وإذا مخط قال : وقاك الله ! وإذا عثر عثر معه إجلالاً له وقال : نعشك الله لا نعشنا ! وقد سمعت أن الترك هنا (أي في مدينة الاسكندرية) عقدوا مجلس شورى استقرّ رأيهم فيه لدى المذاكرة على أن يتخذوا لهم مركباً وطيئاً من ظهور العرب ، فإنهم جربوا سروج الخيل وبراذع الجمال وأكُفهَا وأقتاب الإبل وبواصرها وحُصُرها وسائر أنواع المحامل ... فوجدوها كلّها لا تصلح لهم » .

وإذا كان الشدياق يقدّم صورته ممزوجة بالسخرية المرة التي اتصف بها فإن رائداً آخر من رواد النهضة العربيّة هو عبد الرحمن الكواكبي ، يقدّم صورة أخرى توضّح هذا الاحتقار الكامن في النفس الطورانية المتعجرفة ، ويسوق الأمثال التركية التي تدلّ على ذلك :

« كإطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجي عرب) أي العرب الشحّاذين ، وإطلاقهم على المصريين (كور فلاح) بمعنى الفلاحين الأجلاف ، و(عرب جنكنه سي) أي نَوَر العرب ، وقولهم عن عرب سورية : (نه شامك شكري ونه عربك يوزي) أي دع الشام وسكّرياتها ولا تر وجوه العرب . وتعبيرهم بلفظة (عرب) عن الرقيق وعن كلّ حيوان أسود . وقولهم (بيس عرب) أي عرب قذر ، و(عرب عقلي) أي عقل عربي ، أي صغير . و(عرب طبيعتي) أي ذوق عربي ، أي فاسد . و(عرب جنكه سي) أي جنك عربي ، أي كثير الهزر . وقولهم : (بوني يبارسه م عرب أوله يم) أي إن فعلت هذا أكون من العرب . وقولهم : (نرده عرب نرده طنبوره) أي أين العرب من الطنبور » .

النقطة الثانية هي التتريك ، وهذه أهم ما لحق بالعرب ، فقد كان الأتراك ينظرون إليهم على أنهم أخطر القوميات بما يمتلكون من حضارة رفيعة ، وبما أن الرسول كان عربيّاً ، وصبغ الإسلام بصبغة عربيّة ، ومن أجل تنفيذ سياسة التتريك أنشأ الاتحاديون جمعية « العائلة التركية » التي مرّ ذكرها ، وجعلوا غايتها محو الإسلام وتتريك العناصر العثمانية ، وكان مركزها الآستانة ، وقد عثر ضباط العرب سنة 1912 في منطقة (بولاير) على رسالة من أحد زعماء الاتحاديين إلى قائد اتحادي كبير جاء فيها : (عرّضوا العرب لرصاص العدو ، واعملوا على التخلص منهم لأن قتلهم يفيدنا ، أما الكرد فاحتفظوا بهم لأنهم يلزمون في بلاد الأرمن » .

أما ما لقيته اللغة العربيّة من سياسة التتريك فهو أعمّ وأدهى ، وقد قاموا بحملة مخطّطة لهذه الغاية ، وكانت جريدة « طنين » بوقاً للقضاء على اللغة العربيّة ، كتب أحمد شريف بك فيها قائلاً :

« لا يزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تامّاً كأنهم ليسوا تحت حكم الترك فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال أن ينسيهم لغتهم ويجبرهم على تعلّم لغة الأمة التي تحكمهم ، فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون عاجلاً أو آجلاً على استرجاع مجدهم الضائع ، وتشييد دولة عربيّة جديدة على أنقاض الترك » (9) .

ولم يتوقف الاتحاديون عند هذا الحدّ ، وإنما حاولوا فرض اللغة التركية في المدارس العربيّة ، والدواوين والمحاكم في الولايات العربيّة .

النقطة الثالثة : التضييق على العناصر العربيّة ، فقد عزلوا الكثرة الساحقة من كبار الضباط والموظفين العرب وعينوا في المناصب الشاغرة أتراكاً ثم حلّوا الجمعيات العربيّة التي كانت قائمة في الآستانة وبيروت ودمشق وبغداد ، وأقفلوا نواديها ، ومنعوا الصحف المصرية من الدخول إلى البلاد العثمانية .

النقطة الرابعة : الإساءة إلى الإسلام ممثّلاً بنبيّه العربيّ ، وقد نقل لنا كتاب « ثورة العرب » بعض أقوالهم المشهورة وأفعالهم المشينة ، ففي إساءتهم إلى النبي الكريم قولهم : « إن العرب هم بلية علينا وإن حصان التركي خير من أيّ نبي ظهر في العالم » (ص115) ، وهم يشيرون بذلك إلى حقدهم على الإسلام ونبيّه ، وقد عزمت جمعية ترك أوجاغي على نزع أسماء الصحابة من الجوامع لاعتقادها بأن وجود هذه الأسماء العربيّة في الجوامع والأماكن المقدسة ممّا يضعف الفكرة القومية في الترك (ص141) . ونقل صاحب كتاب « ثورة العرب » بعضاً من خطب عبيد الله الأفغاني في جامع آيا صوفيا ، وهو مشهور بكره العرب وساق الخطب باللغة التركية ثم ترجمها إلى العربيّة ، وهي تمجّد الترك ، وحاول صاحبها النيل بطرف خفي من الأماكن الإسلامية المقدسة في بلاد العرب ومن الخلفاء الراشدين ، ولننظر كيف يسخر من الخضر والملائكة والأولياء في خطبة له في شهر رمضان المبارك وهو يخاطب المسلمين الأتراك :

« يا للحيرة من عقلكم واعتقاداتكم الباطلة ! أين كان الخضر قبل أن يفتح هذه البلد وهذا الجامع سلطان جليل الشأن تركي ابن تركي من قومكم المبجّلين . لماذا لم يأت الخضر قبله فيدير الكنيسة إلى القبلة ولماذا لم يستطع أن يدخل هذا الجامع إلا بعد ما دخله السلطان الفاتح ؟ إنكم تتركون تقديس سلطان قوي الشوكة كحضرة الفاتح صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم (كذا) وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم كالخضر . وكذلك العامة في أدرنة يعتقدون أن الخضر يحضر صلاة الصبح كلّ يوم في الجامع القديم هناك . فإلى أين هرب هذا الخضر لما غلبت عساكر الدولة ودخل البلغاريون أدرنة ، ألم ينهزم الخضر وألوف من الأولياء والملائكة قبل أن تنهزم عساكرنا ؟ لماذا لم يقف هؤلاء الملائكة والأولياء في وجه الكفار ؟ ألم يُغلب جيش الإسلام ويجرح الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة أحد لأنهم أهملوا نقطة مهمة من فنّ الحرب مع وجود قوة الملايين من الملائكة » (10) .

ثم أحلّ صاحب الكتاب الخطيب عبيد الله سفك دم المسلمين الذي لا يحاربون في صفوف حضرات عبد الرحيم وجمال ورضا وشكري وبكر وجاويد ورؤوف وأنور وعزت وطلعت وأمثالهم من أبناء الترك هم أولياء الله تعالى صلى الله عليهم وعلى آلهم وأصحابهم وقدّس الله أسرارهم (كذا) ، وكان هذا الإفتاء وأمثاله دعوة إلى النيل من العرب كما سيأتي(**11**) .

النقطة الخامسة : اغتيال زعماء العرب ومفكريهم والنخبة منهم : إن انتشار الخوّة والأتاوة والفقر وتسلّط الإقطاع أدى إلى بعض التململ في الولايات العربيّة من بعض رجال الأدب والدين ، وكانت الدولة العثمانية قد ارتأت قبل تسلّم الاتحاديين الحكم وبعده أن تمارس القمع الوحشي ضد أصحاب الأفكار المناوئة لحكمهم والتخلص منهم بشتى السبل ، فكانت تتهم بعض هؤلاء ، وهم من رجال الدين ، بالهرطقة كما كان بعض الخلفاء العباسيين يتهمون المناوئين بالزندقة للتخلّص منهم ، وهذا ما جرى مع الشيخ عبد الحميد الزهراوي الذي اتهمه رجال الدين التقليديون بالهرطقة فاعتقل عام 1901 ، وكان قد تعرض إلى مثل هذا الأمر أبو خليل القباني الذي فر بمسرحه إلى مصر ، كما تعرّض إلى مثل ذلك رجل الدين والأدب البغدادي محمود شكري الألوسي الذي اتهم باعتناق المذهب الوهابي ، أما الصحافة فقد لاقت الأمرّين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان عهده شبيهاً بعهد نيرون ظلماً وفتكاً ودسيسة ، وكان يشرف على تحرير الصحف بنفسه وكأنه كان يريد أن يحوّل الصحافة إلى أبواق لتأليهه ولبث الأفكار الموالية له ، وكان على الصحف أن تتحدث دائماً عن الرخاء الذي يعيش فيه العثمانيون ، وأن تبتهل إلى الله تعالى بلا انقطاع ليطيل أيّام السلطان عبد الحميد الثاني ، أما الذين يخالفون ذلك فكان مصيرهم الاعتقال والتعذيب ، ففني مئات الأشخاص أو هلكوا في السجون على أيدي القتلة المدسوسين ، وهاجرت الصحف من بلاد الشام إلى مصر حتى فرغت البلاد من رجالاتها وأعلامها .

ثم بدأ بعد ذلك الأتراك الطورانيون يصبّون أحقادهم على العرب واستغلوا فرصة الحرب العالمية الأولى ليتخلصوا من أحرارهم ومفكريهم ، فكانت « الضربة على الرأس » ، وفعلوا

برجالات العرب مثلما فعلوا برجالات الأرمن وفي الوقت نفسه تقريباً ، إذ قامت السلطات التركية بإعدام الكاهن الماروني يوسف الحايك في 22 آذار 1915 ، ثم أعدمت القافلة الأولى من الأحرار العرب (11 رجلاً) في 21 آب 1915 في ساحة البرج في بيروت ، وكلّهم مسلمون ، ثم أعدمت القافلة الثانية من رجال الفكر العربي في 6 أيّار 1916 (23 رجلاً) في ساحة البرج ببيروت وساحة المرجة بدمشق ، وكانت الضربة موجعة على الرأس ، ولكنّها فجّرت الثورة العربيّة الكبرى في العاشر من حزيران أو عجّلت بتفجيرها بعد مضي شهر واحد على هذه الجريمة الشنعاء .

لم يكتف الأتراك بما ارتكبوه من مجازر وتجويع وإرهاب واستبداد في أثناء وجودهم في الولايات العربيّة ، وإنما ظلّوا يضمرون الحقد والضغينة لكلّ ما هو عربي ، فسلبوا لواء اسكندرون عام 1939 بمساعدة الاستعمار الفرنسي ، ثم جاء التعاون مع أعداء العرب أصدقاء الاتحاديين الصهاينة بعد قيام الكيان الاسرائيلي على الأرض العربيّة في المجالات السياسية والاقتصادية ليؤدي ضربة أخرى للأمة العربيّة في صراعها مع العدو الصهيوني ، فاعترفت تركية بهذا الكيان في عام 1952 ، وأخذت تتعاون معه في المجالات الاقتصادية حتى غدت تركية السوق الرئيسية لتصريف المنتوجات الصناعية الإسرائيلية ، كما غدت الدولة الإسرائيلية سوقاً لتصريف المنتوجات الغذائية التركية ، ولاسيّما اللحوم .

أما الأمة الأرمنية فهي ذات حضارة عريقة متميزة لم يستطع الروم البيزنطيون ولا الفرس ولا الأتراك والروس من بعدهم أن يذيبوا شخصيتها القومية ، وقد دل على حضارتها وخصوصيتها ما تركه لها أبناؤها من أديرة وكنائس ومعاهد وآداب وفنون ، وهذا ما شهد لها به المؤرخون والكتّاب ، ومنهم ديورانت في « قصة الحضارة » الذي يقول (12) :

« وكان إلى شمال بلاد آشور أمة مستقرة إذا قيست إلى غيرها من الأمم ، يعرفها الآشوريون باسم أورارتو ، والعبرانيون باسم ارارات ، ومن جاء بعدهم باسم الأرمن . واحتفظ الأرمن بحكومتهم المستقلة ، وعاداتهم وفنونهم الخاصة قروناً كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون ، وتستمر إلى أن بسط الفرس سلطانهم على آسية الغربية بأجمعها . وأثروا في أيّام

أرجستس الثاني أعظم ملوكهم (حوالي 708 ق.م) من تعدين الحديد وبيعه في بلاد آسية واليونان ، وبلغوا درجة عظيمة من الرخاء وسهولة العيش والحضارة والآداب العامة . وشادوا المباني العظيمة من الحجارة ، وصنعوا المزهريات والتماثيل الصغيرة الجميلة الدقيقة » .

وأرمينية الأصلية هي الأرض التي سكنها الأرمن قروناً طويلة ، وتشمل الثلث الشرقي من آسية الصغرى المؤلف في يومنا هذا من تركية وأذربيجان والجزء الجنوبي من جورجية وقد تعرّض هذا الشعب لظروف تاريخية مختلفة إلى أن استطاع ديكران الثاني الكبير عام 95 ق.م أن يوحّد أرمينية وأن يتوسّع بها حتى بلغت مساحتها 700 ألف كم2 ، وكان يُلقّب بملك الملوك ، ثم بنى عاصمة ا لامبراطورية « ديكرانا كيرت » على الضفة اليسرى لنهر دجلة ، ولكنّ الرومان بقيادة لوكولوس استطاعوا أن ينتصروا على الامبراطورية الأرمنية ، وسقطت العاصمة بتاريخ 6 تشرين الأول سنة 69 ق.م ، ثم استطاع الملك ديكران أن يستعيد عاصمته بعد عامين (67 ق.م) ، ثم قامت حروب طاحنة بين الروم والفرس كانت أرمينية مسرحاً لها ، فقسّمت إلى أرمينية الفارسية وأرمينية الرومانية ، ثم دخلها العرب فاستقرت لهم نهائياً عام 661 م ، وقد تعاون العرب والأرمن لصدّ غارات الخزر في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، وظلت أرمينية تحت الحكم العربي حتى عام 885 م . ثم بدأ بعد ذلك ظهور المغول إلى أن ظهر السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية الذي حدّ من أطماع المغول وانتصر عليهم ، فدخلت أرمينية بعد ذلك تحت ظل الحكم العثماني في عهد السلطان سليم الأول ، وخدم الأرمن الدولة العثمانية خدمات جُلّى حتى سُمّوا « الملّة الصادقة » ، وكان منهم رجال تبوؤوا مراكز حساسة في الدولة .

ولكنّ المسألة الأرمنية كانت أمرّ وأدهى من المسألة العربيّة ، لأن الولايات الأرمنية كانت واقعة ضمن الخلافة العثمانية من جهة ، وكان الأرمن من جهة أخرى يتوزعون من شرق البلاد وشمالها إلى غربها ، في حين أن الولايات العربيّة ، وخاصة شمالي أفريقية ، كانت معزولة تماماً عن السلطنة العثمانية ، ثم إن عوامل أخرى جعلت القضية الأرمنية أكثر حساسية ، أولها ادعاء الروس والفرنسيين والإنكليز أنهم يرعون القضايا التي تتعلّق بالطوائف

المسيحية في السلطنة العثمانية ، مّما أوغر صدر السلطان عبد الحميد الذي اشتهر بأنه كان ذا طبيعة شكاكة ، وكان يحقد على الأجانب وينظر إليهم بعين الارتياب ، ثم إنه كان ذا تربية دينية ، ولذلك نشأ وهو يحقد على الأجانب ، إضافة إلى أنه كان رجلاً متكتماً ، حتى إنه كان يتجسّس على إخوته وأخواته ، ولما ارتقى العرش لم يخف حذره من وزرائه ورجال حاشيته ، ثم جاءت معاهدة سان ستيفانو عام 1878 التي فرضت فيها روسية إرادتها على تركية ، وكان التدخّل الخارجي يقضّ مضجعه ، ولذلك لم يجد بدّاً من أن يشكل الخيالة الحميدية ، وهم مسملون غير أتراك أثار حماستهم الدينية عبد الحميد ، ثم أرسلهم في صيف 1894 إلى القرى الأرمنية في جبال صاصون لينطلقوا على سجيتهم ينهبون ويذبحون وينتهكون الحرمات ، ويغتصبون النسوة ، ويبقرون البطون ، فقضوا على ثلاثة آلاف نسمة ، وهكذا بدأت المسألة الأرمنية تأخذ أبعاد الدم والفناء في عهد عبد الحميد الذي كان مقتنعاً بأن الوسيلة الوحيدة لوضع جدّ للمسألة الأرمنية هي « القضاء على الأرمن وإزالتهم من الوجود » .

ولكنّ القضية الأرمنية أخذت أبعاداً أكثر خطورة في عهد جماعة « الاتحاد والترقي » وخاصة في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد تعرضوا للإبادة الجماعية التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد ، فشكلت لهذا الغرض فرق خاصة أنيطت بها عملية تنفيذ الإبادة ، وكان على رأسها طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا وناظم باشا وبهاء الدين شاكر باشا وعزيز بك وجواد بك وعاطف رضا بك الذين وضعوا خطة محكمة تتلخّص في الأمور التالية :

- إبعاد الشباب الأرمني عن قراه للعمل في مدّ خطوط السكك الحديدية .
- مهاجمة المراكز ونزع السلاح من الرجال .
- اعتقال النخبة الأرمنية وإبادتها من قبل التشكيلات المخصوصة .
- قتل الشباب الأرمني في الجيش .
- التهجير القسري للشيوخ والنسوة والأطفال ثم إبادتهم ، وقد أطلق على مثل هذه العمليات (طريق جهنم) .
- نهب الممتلكات التي خلّفها الأرمن ومصادرة الممتلكات وفق قانون حكومي خاص بذلك ، وإزالة المعالم والآثار التاريخية التي تدل على عراقة وجودهم .

إن ما فعلته الطورانية بحقّ الشعب الأرمني كان كبيراً جداً ، ولذلك فإننا نسوق هنا ـ للدلالة على ذلك ـ بعضاً من الشهادات والأقوال التي يذكرها المؤرخون في هذا الصدد .

ـ قال طلعت باشا في الاجتماع السرّي الذي عقدته اللجنة التنفيذية لجمعية « الاتحاد والترقي » في أوائل سنة 1915 :

« يجب اقتلاع الأرمن من جذورهم ، ويجب ألا نترك أرمنياً واحداً على قيد الحياة في بلادنا . يجب أن نزيل الاسم الأرمني من الوجود » (13) .

ـ وقال سعيد حليم باشا الصدر الأعظم للدولة :

« إن المسألة الأرمنية لا تحل إلاّ بإزالة الأرمن من الوجود » (14) .

هذه صورة ما فعله الطورانيون بالأمتين العربيّة والأرمنيّة ، وانطلاقاً من قانون « الفعل وردّ الفعل » فقد قامت الأمتان المذكورتان بالدفاع عن حقوقهما ووجودهما التاريخي بالتصدي والنضال ضد طغيان العثمانيين ممثلين أولاً بالسلطان عبد الحميد في ثورات أرمنية متتابعة سيأتي الحديث عنها ، وبثورات عربيّة خاصة في الجزيرة العربيّة وبلاد الشام . واتخذ هذا النضال للأمتين المستهدفتين من قبل عدوّ واحد أشكالاً مختلفة وأنواعاً وأساليب متعدّدة .

لقد كان النضال نضالاً فكرياً وثقافياً ظهر في أدبيات الأمتين العربيّة والأرمنيّة ، وكان أيضاً نضالاً دموياً تجلّى في الثورات التي أخذت تقض مضجع السلطان عبد الحميد أولاً ، ثم قضت بعده على الوجود التركي في الوطن العربيّ ثانياً ، كما كان نضالاً سرياً من خلال الأحزاب والجمعيات ، وعلنياً من خلال المؤثرات والأصوات العالية التي تنادت للدفاع عن الحق الصراح ، وهذا ما سوف نبحثه ونراه في الفصول اللاحقة .

الفصل الثاني

العرب والأتراك 1839 - 1916

لم تكن الثورة العربيّة الكبرى عام 1916 بنت ساعتها ، و لم يكن إعدام أحرار العرب في آيّار 1916 وقبله مصادفة مجانية ، وإنما جاء ذلك كلّه نتيجة للنضال العربي المستمر منذ بدايات النهضة العربيّة في القرن التاسع عشر ، وقيام الطليعة من شبان العرب المتنورين وأحرارهم بالدعوة إلى الحرية مستنيرين بما للأمم الأخرى من مبادئ وقوانين ، وبما تتمتع به من ديمقراطيات يفتقد إليها هؤلاء في بلادهم ، وخاصة مبادئ الثورة الفرنسية التي تأثر بها كثير من المثقفين حينذاك ، ومنهم أديب إسحق ونجيب حداد ونجيب عازوري وسواهم .

وكان الهدف من الإصلاحات التي قام بها سلاطين بني عثمان في الولايات العربيّة قبيل عام 1839 تعود إلى الجيش ، وذلك بعد أن أصيبوا بهزائم عسكرية متتالية ، وكان أول السلاطين المصلحين سليم الثالث (1789 - 1807) ومحمود الثاني (1808 — 1839) ، ثم جاء عهد السلطان عبد المجيد (1839 — 1876) وعبد الحميد الثاني (1876 - 1909) .

إن الإصلاحات الاجتماعية المعلنة سرعان ما كان يتخلّى عنها العثمانيون بزوال الظروف التي أدّت إليها أو باستمالة هذه الدولة الأوروبية أو تلك ، ويمثل عبد الحميد الثانى ذروة الاستبداد ، فقد كان المنصب مهيئاً لمستبد ، لأن القوى التي عارضت السلاطين من انكشارية وعلماء قد زالت في الوقت الذي استخدمت فيه الأساليب الأوروبية الحديثة على الصعيدين العسكري والمدني لتوطيد دكتاتورية السلطان وتشديد قبضته في مختلف أنحاء الامبراطورية .

ولكنّ الوهن الذي أخذ يدبّ من قبل في شرايين الدولة العجوز عاد إليها بعد أن منيت بهزائم أخرى أمام روسية ، وأخذت شعوب البلقان تتململ وتثور على السيادة العثمانية ، وتنفصل عنها ، وكانت حالتها شبيهة إلى حدّ بعيد بحالة الدولة العباسية في أواخر أيّامها

حين أخذ كلّ وال يستقلّ بولايته ، وهذا ما حدث للولايات العربيّة في مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربيّة واليمن ، وهذا ما فعله محمد علي باشا الألباني الذي كان يطيع الدولة العثمانية حيناً لتنفيذ مآربه ، وكان يكيد للسلطان كما كان السلطان يكيد له ، واستطاع هذا الوالي أن يثور على السلطان ويتوصل بجنوده إلى قونية ، وكادت جيوشه تهدد العاصمة فخشيت الدول الأوروبية من توحيد هذه البلاد تحت سلطة سلطان قوي فوقفت ضده ، وأوقفته ، كما فعلت من قبل مع بعض أمراء جبل لبنان وفلسطين ، ومنهم الأمير فخر الدين المعني الثاني وأحمد باشا الجزار .

ولقد جعل هذا الوهن الولاة يطمعون في تركة الدولة العجوز ويتنافسون فيما بينهم ، فكانت الحدود بين مد وجزر ، ولكنّ الدول الأوروبية كانت لهم وللدولة العثمانية بالمرصاد ، فتحولت الدول عن القتال فيما بينها وعلى أراضيها إلى التنافس للحصول على المستعمرات والإمتيازات ومناطق النفوذ ، وكان الوضع في بلاد الشام بعد انسحاب الجيش المصري وإثارة النعرات الطائفية (1840 ـ 1860) مهيّئاً لتدخل الدول الأوروبية واقتسام المناطق ، ولم تقف الدولة العثمانية مكتوفة الأيْدي ، وإنما شاركت هي الأخرى في إثارة النعرات الطائفية ، وكانت تحرّض فئة على أخرى بشكل سرّي ، فصبّت النفط على النيران بدلاً من أن تصبّ الماء ، وكانت تنوي إضعاف الطرفين دوماً دون أن تحسب حساباً للأساطيل الأوروبية التي أخذت تجوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، وترسو في بيروت مدّعية هي الأخرى أنها تستهدف تهدئة الأوضاع ، ولم تنسحب إلا بإصدار نظام إداري في حزيران 1861 .

لم يكن هذا التدخل الأوروبي هو الأول من نوعه في الولايات العربيّة ، فقد سبق لفرنسة أن احتلت الجزائر عام 1830 وأعلنتها محمية فرنسية ، وبلغ من ضعف الامبراطورية العثمانية التي امتدت سيادتها على الجزائر أن اكتفت بالاحتجاج على فرنسة ، ولكنّها لم تقطع حتى علاقاتها بها ، ثم احتلت فرنسة تونس عام 1881 وأعلنتها محمية فرنسية ، وكانت مصر مركزاً للصراع الانكليزي الفرنسي ، وتهددت مصالح بريطانية في مصر حين منح الخديوي سعيد عام 1854 إلى المنهدس الفرنسي فرديناند دولسبس امتياز حفر قناة بحرية عبر برزخ السويس ، وأدّى ذلك فيما بعد إلى تدخل بريطانية وفرنسة ماليّاً

بشؤون مصر ، ثم احتلتها بريطانية عام 1882 ، ووقفت الدولة العثمانية إزاء هذا الحدث مكتوفة الأيّدي ، وكأن الأمر لا يعنيها في شيء ، ثم احتلت بريطانية السودان بعد مصر دون أن تحرّك الدولة صاحبة الشأن ساكناً .

ووقّع الانكليز المعاهدات مع إمارات الخليج العربيّ في الربع الأول من القرن التاسع عشر واحتلوا عدن عام 1839 ، وجدّدوا معاهداتهم مع السلاطين العُمانيين في مسقط وزنجبار عام 1890 ـ 1891 ومع البحرين عام 1892 والكويت عام 1899 ، إضافة إلى تغلغل النفوذ الألماني في شرايين البلاد اقتصادياً ، وخاصة فيما يسمّى بـ « دبلوماسية الخطوط الحديدية » ، وفي رؤوس الأموال والمصارف الألمانية التي أخذت تغزو البلاد التركية نفسها على حساب الولايات العربيّة ، وقد قاومت انكلترة امتداد النفوذ الألماني ولا سيما الإمتياز الممنوح لإحدى الشركات القاضي بمدّ سكّة حديد (استانبول ـ بغداد) .

هذه الأوضاع الشاذة دفعت بعض الشبان العربيّ المتنوّر على العمل لتحرير البلاد من الهيمنة التركية واتخذ العمل صوراً متعدّدة قبل التحرر نهائياً من السيطرة :

1- العوامل التي أدت إلى نشأة الحركة التنويرية العربية :

نشأ الفكر القومي في بلاد الشام قبل **غيرها** من الولايات العربيّة لعوامل عدّة أهمها :

أ ـ إصلاحات عهد التنظيمات :

هذه الإصلاحات أصابت بعض الولايات العربيّة ، وخاصة بلاد الشام في عصر الوالي مدحت **باشا** الذي حاول جاهداً أن تنعم **ولايته** **ببعض** الحرية والإصلاحات ، وعرف عهده بعض النهضة في التجارة والزراعة والتعليم ولا سيما في سورية .

ب ـ تكثيفات العلاقات الشاملة مع أوروبة :

كانت العلاقات التجارية قائمة إلى حدّ لا بأس به مع ساحل بلاد الشام ، وخاصة مع الجبل اللبناني منذ أيّام فخر الدين المعني الثاني الذي ربطته بالدول الأجنبية ، ولا سيما

إيطاليا روابط متينة ، كما أن مدينة حلب عرفت هي الأخرى مثل هـذه العلاقات في القرن الثامن عشر ، فقد كان الإفرنج فيها يمثلون دولهـم وشركاتهم ، وكان لمثل هـذه العلاقات الاقتصادية دور في التحول الاجتماعي التنويري وخاصـة في المدن وبين الطبقة البورجوازية والنخبة من المثقفين .

ج ـ نشاط الإرساليات الدينية :

إن التدخل الأوروبي اللامباشـر في شؤون الدولـة العثمانيـة كـان في الإرسـاليات الدينية التبشيرية التي حلّت ظاهرياً بقصد التعليم الديـني والمدني ، ولكنّهـا كـانت تخفـي وراء ذلـك أغراضاً اقتصادية استعمارية لضعف الدولة العثمانية من جهة ، ولوقـوع الوطـن العربـيّ علـى خطوط المواصلات العالمية من جهة ، فكانت سواحل بلاد الشام أول ما لفـت أنظـار رجـال الإرساليات ، فأنشأ العازاريون مدرسـة عينطـورا عـام 1834 ، وأنشـأ الانجيليـون مدرسـتهم في عبية العالية سنة 1847 ، وأنشـأ اليسـوعيون مدرسـة غزيـر عـام 1847 ، ثـم نقـل هـؤلاء وأولئك مدارسهم إلى بيروت ، واتبعت بعد ذلك الإرساليات الانكليزيـة والألمانيـة والروسية والإيطالية في افتتـاح المـدارس في بـلاد الشـام كلّهـا ، فتخرّج في مـدارس الإرسـاليات جملـة صالحة من رجـال النهضـة الحديثـة ، وكـانت مـدارس الإرسـاليات قنـاة واسـعة مـن قنـوات الاتصال بالغرب وعلومه ومناهجه .

وكان من أثر ذلك كلّه الاطـلاع علـى الثقافـة الأوروبيـة ، وخاصـة عنـد رجـال الثـورة الفرنسية ومفكريها وما يتعلّق بأهمية الحرية ، ومقارنة ذلك كلّه بالوضع القـائم في الولايـات العثمانية في ظل السلطان المستبدّ عبد الحميد الثاني (ظلّ الله على الأرض) .

وعلى الرغم من مجابهة الفكر السلفي في بلاد الشام للفكر التقدمـي فـإنّ الأخير اسـتطاع أن يثبت وجوده بعد نضـال طويـل بـين هـؤلاء وأولئـك ، فـازدادت الحركـة التنويريـة سـعة واطلاعاً ، وتجلّت الحركة التنويرية أولاً في بلاد الشـام نتيجـة للإحتكـاك المباشـر مـع الغـرب بطرق عدّة ، وربما تعود إلى قبل عهد الإرساليات نفسها ، وإلى أيّام فخر الدين المعـني الثـاني الذي اتصل بالغرب لتعزيز مكانة إمارته اقتصادياً وعسكرياً ، وقـد نـاوأ هـذا الأمـير السـلطة العثمانية ، واستطاع بنو عثمان أن يستميلوه فترة ، ثم قتلوه وولديه 1635 .

د ـ الصحافة :

قامت الصحافة العربيّة التي أنشأها السوريون خاصة بدور فعّال في الحركة التنويرية واليقظة العربيّة ، وكانت الصحف تفتح ثم تغلق من قبل السلطات ، ولكنّ أصحابها ما كانوا يعرفون اليأس أو يخضعون للخسارة ، بل كانوا يحملونها معهم من مكان إلى مكان ، من لبنان إلى مصر ، ومن مصر إلى باريس أو لندن أو الآستانة وسواها في حركة دائبة ، ومن أهم هذه الصحف والمجلات « نفير سورية » 1860 و « الجنان » 1870 و « الجنّة » 1870 و « الجنينة » 1871 و « المقتطف » 1876 ــ 1882 في بيروت ، ثم نقلت إلى القاهرة ، وأظهر الأدباء السوريون واللبنانيون مهارة فائقة في هذا المجال وفي الحركة التنويرية ، ومن هؤلاء الرجال إبراهيم اليازجي ونجيب الحداد وأديب إسحق وعبد الرحمن الكواكبي .

هـ ـ الجمعيات :

رافق ظهور الصحافة ولادة كثير من الجمعيات القومية والأدبية في بيروت أولاً ثم في بقية المدن السورية ، وكان لهذه الجمعيات دور فعّال في الحركة التنويرية العربيّة ، فقد تشكّلت نتيجة للاستبداد العثماني والتخلّف الاجتماعي من نخبة من مفكري الوطن وأدبائه الذين تسلّحوا بالوعي وتنوّروا بالعلم ، وكانت الجمعيات مختلفة الميول والمشارب ، منها ما هو سرّي ، ومنها ما هو علني ، ولكنّ دورها يكاد يكون واحداً في مناهضة الظلم والاستبداد ونشر الوعي بين المواطنين والتحريض على الثورة والاستقلال ، ومن أهمّها « الجمعية السورية » التي تأسّست في بيروت سنة 1847 ، وكان من أعضائها الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني ، و « الجمعية العلمية السورية » ومن أعضائها إبراهيم اليازجي وخليل الخوري ، وجمعية « زهرة الآداب » في بيروت 1873 ، ومن أعضائها سليمان البستاني وأديب إسحق وإبراهيم اليازجي ، و « المنتدى الأدبي » في الآستانة سنة 1909 ومن أعضائها عبد الكريم الخليل ورفيق سلوم ، و « الجمعية العربيّة الفتاة » في باريس 1911 ، ومن أعضائها عبد الغني العريسي .

2 ـ تجليات الوعي القومي :

تجلّى الوعي بالقومية العربيّة في هذه المرحلة في عدّة مظاهر بدت على السّاحة بشكل أو بآخر ، وإن كانت في الغالب مشوبة بنزعات أخرى ، كالنزعة الشرقية والنزعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية ، ولكنّها في الوقت ذاته كانت لمصلحة التنوير العربيّ ، الذي تجلّى في عدّة مظاهر :

أ ـ الاهتمام باللغة العربيّة اهتماماً ملحوظاً :

وخاصة بعد أن قامت حركة التتريك التي سنعود إليها . ومن البدهي أنّ اللغة العربيّة الفصحى هي التي ولّدت في العرب الشعور القومي المشترك ، وقد بقيت اللغة العربيّة على مرّ العصور أساس العروبة ، فلما حاول الأتراك القضاء عليها نهض المفكرون العرب يدافعون عنها موكّدين أن اللغة هي الأمة ذاتها ، قال في ذلك إسعاف النشاشيبي :

« اللغة هي الأمة والأمة هي اللغة ، وضعف الأولى ضعف الثانية ، وهلاك الثانية هلاك الأولى » .

ب ـ الاهتمام بالتاريخ والماضي العربيّ :

انطلق المفكرون والأدباء ردّاً على ما حلّ بالعرب من ظلم واستبداد يذكّرون أبناء جلدتهم ما كان لهم في الماضي من تاريخ عريق ومن حضارة زاهية ، ليبعثوا في نفوسهم النخوة والمنعة ، وليدفعوهم إلى التضامن والالتفاف حول فكرة واحدة تنقذهم ممّا هم فيه من تخبّط في الذلّ والجهل والتخلّف ، فذهبوا يستوحون أحداث الماضي وأمجاده الخالدة ، فيعيدون إلى الفكر صدى ما سلف وإلى النفس ذكرى ما تقدّم ، مدفوعين بحبّ العرب الذين كانوا في الماضي في ذروة الحضارة والمجد ، ثم غلبهم الدهر على أمرهم ، ولذلك كان هؤلاء ينبهون أبناء جلدتهم لاستعادة الغابر من المجد ، ولإحياء الداثر من الحضارة ، فهذا أديب إسحق يعيد على أسماعهم صورة لشعلة العروبة قائلاً :

« شعلة سرت من الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً ونـاراً ، فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس ... فسارت أسود رجالها على ظهور خيولها ، تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت بروقي عزمها شرفات الإيوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر أعلامها ، وضربت في الأندلس خيامها ، أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدىً أم يحسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدىً ؟ أو لا يعلمون أنّ مثل هذا الاجتماع منزّهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربيّة ، يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وإرهاباً ، فتعود للعرب الضّالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون » .

وعلى مثل هذا النهج ما سار عليه أصحاب الروايات التاريخية إذ راحوا يصوّرون أمجاد العرب ورجالاتهم بالعودة إلى الفاتحين والقادة ، ومن ذلك ما قام به جرجي زيدان في رواياته التاريخية ، وما قام به المترجمون العرب الذين ترجموا الروايات التمثيلية والقصص ، وأطلقوا عليها أسماء عربيّة ، ويعدّ هذا الاهتمام مواجهة خفيّة لما كان يحدث بين الأتراك والعرب ، وتذكير بالماضي العربيّ المجيد .

وكان بعض المفكرين يذكّر أبناء جلدته بأنّ أجدادهم لم يعرفوا الذلّ والخنوع الذي يعرفونه اليوم ، وهو في ذلك يدعوهم إلى النهضة والثورة على المستبدين ، ومن ذلك كثير ممّا قاله الكواكبي ، ومنه قوله :

« ياقوم : جعلكم الله من المهتدين . كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله . وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ، ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزّاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء. البهائم تودّ لو تنتصب قامتها ، وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيّديكم قوائم . النبات يطلب العلو ، وأنتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا في جوفها . فإن كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلاً لتناموا طويلاً » .

ج ـ رفض هيمنة الآخر والإحساس بالشخصية القومية :

بدأ بعض المستنيرين يتململون تحت وطأة سلطة غاشمة ، وأخذوا يرفضون أن يكون رجال الإكليروس شبيهين برجال السلطة الزمنية وعوناً لهم على رعاياتهم ، وقد منحتهم الدولة العثمانية حقّ التدخل والحلّ والربط ، ولذلك فإن فتوراً كبيراً في الإيمان يمكننا أن نجده لدى الطبقة المثقفة ، وهو أقرب إلى عدم التسليم بالأمر الواقع ومناقشة الأمور والقضايا وتقليبها على جميع وجوهها ، فكان الواحد من هؤلاء ينتقل من طائفة إلى أخرى . وخاصة بعد المواجهات العنيفة مع هذه السلطة كما حدث مع أسعد الشدياق وأخيه أحمد فارس الشدياق وفرح أنطون وشبلي شميل وجبران خليل جبران وسواهم ، ولا يتوقف هذا الرفض عند هذا الحدّ فإنّ بعض المؤرخين يذكر أنّ الصراع في الكنيسة المارونية اتخذ شكلاً معادياً للإكليروسية بوضوح في النصف الثاني من القرن الماضي ، فأصبحت القيادات الروحية المارونية هدفاً لهجمات عنيفة .. وتعرضت الكنائس للمقاطعة وانتشرت الحركة انتشاراً واسعاً جداً (15) .

وكان للطائفة الأرثوذكسية مع السلطة ا لدينية في شمالي سورية موقف من الطقوس الدينية التي كانت الكنيسة تفرضها على الرعية باللغة اليونانية ، وطالبت الرعية وصغار رجال الكنيسة تغيير نظام الإشراف على أملاك الكنيسة وعلى تأدية الصلوات باللغة العربيّة ، واستطاعت الرعية أن تعزل البطريرك سبيريدون على الرغم من الدعم من جانب الحكومة التركية ، وانتخب بطريرك بديلاً منه .

ونادى بعض المصلحين المسلمين بتجديد الفكر الإسلامي ، وقد تلخّصت هذه الأفكار في مؤلفات جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وبعض الأدباء من رجال ا لدين المثقفين من أمثال عبد الحميد الزهراوي وعبد القادر المغربي والشيخ طاهر الجزائري ورفيق العظم ، وأصبح الحديث ضد العقائد الرسمية التقليدية للإسلام في جوّ الحكم السلطاني المستبد اعتداء على أساس من أسس النظام العثماني (16) .

د ـ ضرورة أن يكون الخليفة عربيّاً :

قويت هذه الفكرة في بدايات النهضة العربية انطلاقاً من أن العرب أمة الإسلام ، وأن الرسول عربيّ والخلفاء الراشدين عرب ، وأن الإسلام لم يعرف ازدهاره إلا في أيّام العرب ،

وكان لعبد الرحمن الكواكبي دور في هذا المجال في كتابه « أم القرى » الذي وجد فيه أن الأتراك هم أروام ابتعدوا عن الإسلام الصحيح ، وأن الجزيرة العربية هي المقرّ الأساسي للإسلام ، وفيها الأماكن المقدسة الرئيسية للإسلام ، وشبه الجزيرة العربية هي منطقة إسلامية خالصة ، وتقع في قلب العالم الإسلامي ، ولم يتعرّض سكانها لتأثير الشهوات المادية الغربية عن الإسلام ، وأن العرب هم أقدم أمة إسلامية ، وهم الذين نشروا المبادئ الإسلامية ، وأن اللغة العربية هي أغنى اللغات في العالم الإسلامي ، ولذلك ينبغي إقامة خلافة محدثة يكون الخليفة فيها عربياً قرشيّاً حتماً . ويجب على كلّ من يشغل هذا المنصب أن يحصل كلّ ثلاث سنوات على الثقة بتمديد صلاحياته . ويجوز خلع الخليفة عند الضرورة . ولذلك كان هذا المشروع أول برنامج متطوّر للتحرّر العربي .

وقد لاقت أفكار الكواكبي في بعث الخلافة العربيّة صدىً في تطلّع المتنورين العرب نحو التحرر القومي فدعا نجيب عازوري إلى استقلال الممالك العربيّة من الامبراطوية العثمانية عن طريق بعث الخلافة العربية ، وأسس في باريس عام 1904 « رابطة الوطن العربي » ، وأصدر عام 1907 صحيفة « الاستقلال العربي » باللغة الفرنسية لهذا الغرض ، وفي عام 1905 نشر بياناً سياسياً « يقظة الأمة العربية » دعا فيه إلى انفصال الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية ، وتشكيل خلافة عربيّة برئاسة حاكم عربي .

هـ ـ الأدب الجديد والفكر القومي :

وإذا كان الأدب يمثّل فكر الأمة فإن الأدب العربي ، ولا سيما الشعر منه ، في هذه المرحلة قام بدور فعّال في التعبير عن الاستبداد العثماني من جهة ، وفي الفصل بين التركي والعربي من جهة ثانية ، وفي الحديث عن أمجاد العرب الغابرة والحديث عن اللغة العربية من جهة ثالثة .

ففي التنديد بالاستبداد العثماني قال الزهاوي في تهجّمه على السلطان عبد الحميد وفساد حكمه :

وما هيَ إلا دولةٌ مستبدّةٌ	**تسوسُ بما يقضي هواها وتعملُ**
فيا ملكاً في ظلمه ظلَّ مسرفاً	**فلا الأمنُ موفورٌ ولا هو يعدلُ**

وفي الفصل بين الإنسان العربي والإنسان التركي يقف إبراهيم اليازجي في طليعة الأدباء العرب المتنورين ، وقصيدته البائية التي نظمها سنة 1868 من أهم القصائد التي قيلت في هذا المجال وهي أولها ، ومطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيّها العرب   فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وهو يدعو فيها إلى نبذ الظلم والثورة على العلج والتمثل بالأجداد الميامين لبناء دولة العرب :

ألستم من سطوا في الأرض واقتحموا   شرقاً وغرباً وعزّوا أينما ذهبوا

ومن أذلّوا الملوك الصيد فارتعدت   وزلزل الأرض مما تحتها الرهب

ومن بنوا لصروح العزّ أعمدة   تهوي الصواعق عنها وهي تنقلب

فما لكم ويحكم أصبحتُم هملاً   ووجهُ عزّكم بالهون منقلب

لا دولةٌ لكم يشتدُّ أزركمُ   بها ولا ناصرٌ للخطب ينتدبُ

وعبد الغني العريسي واحد ممن ميّزوا وفصلوا بين الشخصية العربية والشخصية التركية ونادوا بضرورة الانفصال ، وصرخته مشهورة : « فحقّ للعرب أن يكون لهم على رأي علماء السياسة من دون استثناء حقّ جماعة ، حقّ شعب ، حقّ أمة » . وقد رأينا فيما مضى التذكير بالماضي العربي المجيد والحديث عن أهمية اللغة العربيّة في هذه الفترة .

3ـ حركة التنافر بين العرب والأتراك :

بدأت حركة التنافر بين العربيّ وحكامهم الترك منذ أن دخل العثمانيون البلاد العربية ، ولكنّ الدين الواحد كان عاملاً في تهدئة النفوس في كثير من الأحيان ، إضافة إلى قضايا الجهل والتواكل ، وهذا ما كان يغذّيه الأتراك في البلاد العربيّة ناهيك عن الظلم والاستبداد والتجويع ، ولكنّ الحال تغيّرت وساءت في زمن الاتحاديين الذين صاروا يجاهرون باحتقار العنصر العربي وإذلاله ، وراحوا يطمسون هويته القومية ، وكانو يزدادون استبداداً وغطرسة لسكوت العنصر العربي على ذلك من جهة ، ولطبيعة التركي القاسية وحبّه لسفك الدماء وطبيعة الاتحاديين التي تعتمد على القوة والبطش والجريمة من جهة .

ولما ثار العرب والأرمن والأتراك على السلطان عبد الحميد وأسقطوه ظنّوا أنهم اسقطوا

الظلم إلى الأبد ، وما كانوا يدركـون أن القـدر يخبّئ لهـم مـا هـو أدهـى وأمـر ، فقـد قـابل الأتراك الجدد أنصار الأمس الأرمن والعرب بالنكران ، وقلبوا لهم ظهر المجن ، فذهـب غـلاة الطورانيين إلى إبادة الشـعب الأرمـني وإلى تـتريك العنـاصر غير التركية بـالقوة ، وتخصيص الوظائف الكبرى بالأتراك وحدهم ، وحرصوا على جعل اللغة التركية اللغـة الرسميـة الوحيـدة للدولة بعد تنقيتها من الألفاظ العربيّة ، ثم بدأت بعض صحفهم تشنّ حمـلات واسـعة علـى العرب ، وخاصة صحيفة « طنين » ، فردّ الأحرار العـرب علـى النزعـة الطورانيـة مبينـين أن الترك الاتحاديين عصبة طاغية ، وأبرز طغيانها في الحطّ من شأن الأمة العربيـة علـى حـد قـول شاعر الثورة العربيّة فؤاد الخطيب :

يـا عصبـةً في بـلاد الـترك طـاغيـةً … لاتحسبـوا العُرْبَ في أوطانهـم رِمَمـا
إن الـزمـان الذي أولاكُـمُ نعـمـا" … هـو الـزمـانُ الـذي نـرجـو به نِعَـمَا
وهـذه صحـف التـاريخ نـاطقــةٌ … بفضلنـا ، فاسألوا التاريخ والعجما

ولم تكـن هـذه الأبيـات وأمثالهـا نموذجـاً في عهـد الاتحـاديين للشـعراء المتنوريـن ، ولكـنّ الشعراء الذين عرفوا بتعلقهم بالدولة العثمانية على أساس أنها دولة الإسـلام والمسـلمين هبّـوا هم الآخرون يردّون على غلاة الطورانيين بعدّ أن تبيّـن لهـم أنهـم يتـاجرون بالإسـلام ، وهـو منهم براء ، فهم الذين أرادوا تهديمه بعد أن بدؤوا بتهديم لغته ، وهـذا صـوت الشـاعر عبـد الحميد الرافعي ، وهو واحد منهم ، يندّد ويفضح المقاصد البعيدة لهؤلاء ولدولتهم :

تحسَـبُ أنَّ الـعُرْبَ أعدّاؤهـا … وهـمُ مـدى الأيّـام حُرّاسُهـا
تـزعمُ حـب الدين ، لكنّ كما … يُـروِّجُ الـسِّلعةَ دلاسُــهـا
لـو تألـفُ الـقرآن ما حـاربت … لســانَهُ حتى التـوى فاسُهـا

4 ـ الحركات الجماهيرية :

ولا يذهب الظنّ بنا إلى أن الولايات العربيّة ظلّت هامدة ، لا تقوم بأيّـة قائمـة حتـى قـام المتنورون إلى دعواتهم ، فقد عرفـت هـذه الولايـات حركـات جماهيريـة متتاليـة ، وإن كـان بعض هذه الحركات لم يفصل بين الجنـس الـتركي والجنـس العربـي ، ولكـنّ هـذه الحركـات قويت واشتدت في أيّام الظلم والجوع ، وأولها أن الدولة العثمانيـة لم تسـتطع بسـط نفوذهـا

على بعض الأجزاء من بلاد الشام إلى فترة بعيدة ، وخاصة في جبل الدروز وجبال العلويين ومناطق البدو ولبنان ، وظلّ حكمهم في هذه المناطق شكليّاً ، ولم يسيطروا إلا على المناطق القريبة من المدن والشريط الساحلي الضيّق والمناطق الوسطى في سورية .

وشملت الانتفاضة في منتصف القرن الماضي أراضي بعض الولايات العربية فعرفت حوران انتفاضة جماهيرية ضد الحكم التركي عام 1852 ، وامتدت الانتفاضة إلى المناطق المتصلة بها كاللجاة والجولان ووقعت أحداث مماثلة في مناطق القدس وطبريا ، ووصلت الانتفاضة عام 1854 إلى الجبال العلوية ، فانتفضت عشائرها هي الأخرى على الحكم التركي بقيادة خيري بك .

وكانت الثورة الفلاحية في لبنان قد قامت بعد رحيل الجيش المصري عام 1840 ، وتحوّلت الخلافات في تشرين الأول 1841 إلى صراع مسلّح ، وفي نيسان عام 1845 قام الفلاحون الموارنة بانتفاضة ضد اقطاعييهم ، وثار الفلاحون بقيادة الحداد طانيوس شاهين على الإقطاع عام 1859 في منطقة كسروان ، فأسّسوا جمهورية فلاحية لها إداراتها وهيئاتها التشريعية وقواتها المسلحة .

أما الجزيرة العربيّة فقد عرفت ثورات متتالية ، وخاصة الثورة الوهابية ، فقد تعرّضت امبراطورية عبد الحميد الثاني إلى هزائم واضحة في شرقي ووسط شبه الجزيرة العربية ، وضعفت سلطة القبائل العربية الموالية لتركية ، كإمارة شمّر ، وفقدت الدولة العثمانية السيطرة على الكويت ، أما اليمن فقد عرفت ثورات متتالية ، وقد أخفقت الحملات التركية التأديبية ، وتؤكد المصادر غير الرسمية أنه كان يهلك سنوياً حوالي عشرة آلاف جندي تركي ، حتى اشتهرت اليمن بكونها « مقبرة الأتراك » .

5 ـ المواجهة العامة والثورة العربية :

امتدت المواجهة بين العرب والترك واشتدت بين الأحزاب والجمعيات العربية من جهة وبين الطورانيين من جهة ، وقام المؤتمر العربي الأول في باريس سنة 1913 ، وهو الذي فجّر هذه المواجهة ، وخصوصاً أنه بحث قضايا الولايات العربية الأساسية ، كمناهضة

الاحتلال التركي والغربي وحقوق الشعب العربي ، وضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية ، ولكنّ الاتحاديين قاوموا هذا المؤتمر قبل انعقاده ، وحاولوا منعه بشتى الوسائل ، وجنّدوا لذلك صنائعهم ، وحاولوا إقناع الحكومة الفرنسية بمنع عقده في باريس ، وقامت جريدة « طنين » الشهيرة بعدائها للعرب بحملة شعواء على المؤتمر ، واتهمت أحرار العرب بالخيانة والعمالة لدول أجنبية ، ثم حاول الاتحاديون إغتيال زعماء العرب ، ثم ابتدأ عمل الاتحاديين لمحو الإسلام وسحق العرب كما يرى صاحب كتاب « ثورة العرب » ، وألّفوا لتلك الغاية جمعية « ترك أوجاغي » التي سبق الحديث عنها ،وألّف جلال نوري بك ـــ وهو كاتب تركي شهير ـ كتاباً بعنوان : « تاريخ المستقبل » جاء فيه :

« إن المصلحة تقضي على حكومة الآستانة بإكراه السوريين على ترك أوطانهم وأن بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين . وممّا لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحوّل جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية لأن النشء العربي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية وهو يهدّدنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » (17) .

وأرسل الاتحاديون جمال باشا السفاح عام 1914 إلى الولايات العربية لهذه الغاية ، وهو ليّن لين الأفعى ، وقاتل كالسمّ الزعاف ، وطاغية جبّار ، ومخادع كبير ، تقرّب من الطليعة العربية وهو يحفر لها القبور ويعدّ لها المشانق ، وهو أحد الطورانيين الغلاة الثلاثة :طلعت وأنور وجمال ، حاد المزاج ، ذو روح عدوانية ، لجأ إلى وسائل عدّة لقهر الجنس العربي ، وأهمها تجويع الشعب في سورية ولبنان ، وقد جعل الأهلين يموتون على الطرقات جوعاً وعطشاً ، مجرم حرب ، وعنصري ، نصب المشانق ونفّذ فعلته الوحشية في طليعة المتنورين العرب باتهامات باطلة ومحاكمات صورية عاجلة (18) .

ولكنّ العرب لم تخدعهم اتهامات جمال باشا السفاح ولا شخصيته الطورانية الحاقدة على الجنس العربي والشعوب الواقعة تحت حكمهم الاستبدادي ، فأعلن الشريف حسين في 10حزيران 1916انطلاقة الثورة من مكة المكرمة ، وحوصرت الثكنات التركية فيها ، وابتدأ الزحف العربي من كلّ مكان لنصرة الجيش العربي ، وبدأت المدن العربية تتحرّر

واحدة بعد واحدة وأخذ الجيش العثماني يفرّ إلى الشمال أو يستسلم بأعداد كبيرة ، ثم أعلن الشريف حسين ولادة الدولة العربيّة ، وتألفت أول وزارة في 5 تشرين الأول 1916 ، وهكذا خرج العرب من عهود الظلام وعهدة الطورانيين العثمانيين إلى عهد الحرية والنضال ضد المستعمرين الغربيين .

الفصل الثالث

الأرمن والأتراك 1860 - 1923

استطاعت الدولة العثمانية أن تبسط نفوذها على قسم كبير من البلاد الأرمنية والبلاد العربيّة والبلقان ، وغدت امبراطورية واسعة الأطراف في زمن شبابها وقوّتها ، واستطاع الشعب الأرمني أن يتلاءم وهذه الظروف الجديدة ، وأن يعمل مخلصاً في تدعيم أركان الدولة اقتصاديّاً وعسكريّاً ، واستطاع بخبرته الحضارية التي تحدثنا عنها سابقاً أن يرتقي إلى مناصب رفيعة على الرغم من المعوقات الكثيرة التي كانت تواجهه ، وكانت الدولة بحاجة ماسة إلى جهود هذا الشعب ، ولا يمكنها الاستغناء عنها في كثير من المجالات الصناعية والتجارية والثقافية والعلمية ، واستطاع هذا الشعب بأمانته وإخلاصه وجدّه واجتهاده واحترامه للمواثيق والعهود وتفوّقه أن يتميّز من الشعب العثماني نفسه ، حتى إنه غدا محسوداً من الشعوب الأخرى التي لا تضاهيه حضارة ولا تجاريه قدرة على العمل والبناء ، ولذلك لم تكن الصفة التي أطلقت على الأرمن في فترة من الفترات « الملّة الصادقة » سوى دليل قاطع على ما كان عليه الأرمن من جدّ وعمل وصدق ومكانة في الدولة العثمانية ، وهي تدل ، في الوقت نفسه ، على الدور الحضاري الكبير الذي قام به هذا الشعب في بناء الدولة وتطويرها .

ولكنّ هذا الحسد تحوّل إلى حقد أسود منذ منتصف القرن التاسع عشر على المستوى الشعبي ، فاستغله الساسة العثمانيون وأجّجوه ناراً مشتعلة في النفوس ، فأخذت أرمينية الغربية الواقعة تحت الاحتلال العثماني تعاني ظروفاً قاسية ، وصار الأرمني معرّضاً في عقر داره إلى الظلم والإهانة وهجمات العشائر ، وهذا ما دفع البطريرك الأرمني في القسطنطينية إلى أن يهتمّ بأحوال رعيته وإصلاح شؤونها .

كانت الأعمال الاستفزازية بحقّ شعب ضحّى وقدّم في سبيل بناء امبراطورية عثمانية

قوية دافعاً إلى أن يراجع حساباته ، ويتأمل مستقبله ووجوده في ظلّ دولة تسعى هي بطرق خفيّة إلى محو وجوده أو إذلاله ، فبدأت الشبيبة الأرمنية تطالب الباب العالي بحقوقها ، وتمكنت في عام 1863 من جعل انتخاب رجال الإكليروس عاماً في الشعب الأرمني ، كما استطاعت تأليف مجلس ملّي جديد مهمته إنهاض الأمة سياسيّاً وعلميّاً واقتصاديّاً ، وقد لجأ الباب العالي أولاً إلى سياسة الحكمة واللين مع الأرمن العثمانيين لمنعهم من الالتجاء إلى جارتهم روسية ،فمنحهم استقلالاً إدارياً ، وفتح باب المناصب في وجوههم ، حتى أصبح الأرمن أرباب القلم في الدولة العثمانية .

وكان زعماء الأرمن في هذه الفترة فريقين : فريقاً إلى جانب الاستقلال الإداري ضمن الدولة العثمانية ، وفريقاً إلى جانب الانفصال عن الدولة العثمانية والدولة الروسية وإعادة بعث المملكة الأرمنية المستقلة ، وهذا ما كان يجري في الولايات العربية والبلقان ، ولما ازداد أمر الأرمن سوءاً وازدادت نقمة ا لشعوب من الأرمن العثمانيين حسداً وحقداً بدأت التنظيمات الأرمنية توجّه الشعب الأرمني في كفاحه من أجل الحرية .

ولما وقعت الحرب الروسية التركية عام 1877 ـــ 1878 وتوغّل الروس في البلاد العثمانية ، هاج زعماء العشائر وذبحوا الأرمن في بعض قرى الأناضول ، فتدخلت روسية في ذلك ووقّعت مع الدولة العثمانية معاهدة « سان ـــ ستيفانو » في 3 آذار 1878 التي تضمّنت الصلح بين الدولتين ، كما تضمّنت استقلال بلغاريا ، ومنحت روسية بموجبها بعض الأراضي التركية ، وكانت المادة (16) تتضمن هي الأخرى أن تقوم الدولة العثمانية بإصلاحات وتحسينات في المقاطعات التي يقطنها الأرمن كما أنها نصت على أن تحتفظ روسية بمناطق باطوم وألا يجلو عن بقية المناطق إلا بعد أن تقوم الدولة العثمانية بتنفيذ الإصلاحات ، وأكره العثمانيون على قبول هذه المعاهدة التي تتضمّن بنداً بأن يتكفّل الباب العالي بإجراء الإصلاح اللازم في الولايات التي يسكنها الأرمن وبرفع الضيم عنهم ، وحفظ الأمن في بلادهم ومنع الأكراد من الاعتداء عليهم ، وهكذا ظهرت المسألة الأرمنية إلى الوجود ، وباتت جزءاً لا يتجزأ من المسألة الشرقية التي كانت تقضّ مضاجع الأتراك بعد أن دبّ الوهن في أوصال الدولة العجوز .

ولكنّ انكلترة التي كانت تراقب الأوضاع عن كثب وتطمح أن يكون نصيبها من تركة

الدولة العثمانية كبيراً ، وكانت ، في الوقت ذاته ، تخشى التوسع القيصري الروسي في البلاد العثمانية ، أبرمت معاهدة سرّية مع تركية نالت بموجبها جزيرة قبرص في 4 حزيران 1878 ، ثم قامت الدولة البريطانية باجبار القيصر الروسي على تعديل المعاهدة في مؤتمر برلين الذي انعقد في 13 تموز 1878 ، فعدّلت المادة (16) بالمادة (61) التي أناطت الإصلاح في المقاطعات الأرمنية بالسلطان العثماني تحت إشراف مجموعة من الدول الأوروبية .

ولكنّ الذي جرى أن السلطان العثماني حينذاك كان يكيد للشعب الأرمني ، فأوكل الإصلاحات إلى لجنة لا يهمّها سوى دمار هذا الشعب ، ولم يجد بطريرك الأرمن في القسطنطينية حينذاك بدّاً من أن يرسل إلى جميع سفراء الدول التي عقدت معاهدة برلين اعلاناً نقتطف منه ما يلي :

« يا صاحب السعادة، لقد أخطرت سعادتكم تكراراً كنائب إحدى الدول التي عقدت معاهدة برلين ، وكان إخطاركم يتعلق بحالة الأرمن العامة في السلطنة العثمانية التي وصلت إلى نقطة التأزم فيما يتصل بالمادة الحادية والستين من تلك المعاهدة وذلك بارسال معتمدين إلى سائر أنحاء السلطنة التي يسكنها الأرمن .

وتعلمون سعادتكم كيف تتألف لجان المعتمدين ، كما تعلمون كيف تكون المعلومات التي تعطى لهم ، يجب أن أبسط أمامكم أسباب الأضرار اللاحقة بالأرمن لأن معرفتها تؤدي إلى اتخاذ الوسائل الاصلاحية الناجعة ، وعندي أن العلل تكمن في صفات المأمورين ، فهم جميعاً من المسلمين الذي ينسون واجباتهم الوظيفية ليحلّوا محلها واجباتهم الدينية ، وعلى ذلك نقول إن البلاد لا تساس سياسة قانونية بقدر ما تساس سياسة دينية ، وكثيراً ما يقاد الأرمني إلى مجلس ديني لا تتعلق الخصومة به ، ما نطالب به من اصلاحات أن تفرز الأمور المدنية عن الأمور الدينية ، وأن يعين مأمورون من الأرمن في أرمينية ، وتوضع قوانين حقوقية وجزائية وفق القضاء الأوروبي الحديث تمنع المحاكم الشرعية من التدخل ، وينبغي أن يكون هذا القضاء الجديد مستنداً إلى ضابطة قادرة على ضمانة حالة الأهالي وتأمين حياتهم ، وأن

تكون مؤلفة من المسلمين والنصارى .

إن الاصلاح يحتاج إلى جملة أمور مراعاة لقواعد المساواة التي أعلنتها الحكومة العثمانية ومنها قسمة الأراضي بالتساوي ، واستخدام اللغة الأرمنية إلى جانب التركية ، ووجود نظام محلي بكل ولاية ليس من الضروري أن يرتبط بالمركز ـ الآستانة في كلّ مقتضياته ، وعند الأرمن أن هذا الاصلاح هو الأهم والأكبر ، فلو بدلت الفرمانات التي صدرت بتعيين وال صادق خال من التعصبات الدينية ينفق قسماً من مال أرمينية على نفعها لأصبحت البلاد من أجل أقسام السلطنة ، ولعمت مظاهر الألفة والمحبة والاتحاد في ظل القوانين » (19) .

وبدأ السلطان عبد الحميد بعد أن تسلّم منصبه ينظر إلى المسألة الأرمنية بعين الحذر والريبة ، وكان يرى أن المسألة الأرمنية شبيهة بالمسألة البلغارية ، ولذلك أخذ يستعدّ لإبادة الأرمن وإزالتهم من الوجود ، وخطّط لأفعاله على مستويين :

ـ **المستوى العسكري** : شكّل فرقة الخيالة الحميدية في مطلع صيف 1891 ، وألّفها من القوميات الإسلامية غير التركية كالألبان والشركس والأكراد خاصة ، وأوكل إليها مهمة تأديب العصاة وقمع حركات التمرد ، وألبها ضد الأرمن على وجه الخصوص .

ـ **المستوى الاجتماعي** : أخذ السلطان عبد الحميد يوطّن القبائل الكردية في الولايات ذات الأغلبية الأرمنية ، ويدفعهم سرّاً إلى مضايقتهم ، فقام الأرمن ليدافعوا عن حريتهم ووجودهم ، ولذلك حدثت المواجهات الأولى في منطقة (صاصون) في عام 1894 ، وهي بداية للمجازر الأرمنية التي تعاقبت فيما بعد ، وقسّمها المؤرخون إلى ثلاث مراحل :

أ ـ مرحلة السلطان عبد الحميد الثاني 1894 ـ 1909 .

ب ـ مرحلة الاتحاديين الطورانيين 1909 ـ 1919 .

ج ـ مرحلة تركية الكمالية 1919 ـ 1923 .

أ ـ مرحلة السلطان عبد الحميد الثاني 1894 - 1909 :

تقرّب السلطان عبد الحميد من زعماء العشائر وحاول استمالتهم إليه ، وانتهز الخلافات الداخلية بين الدول الأوروبية ، فأوعز إلى الزعماء بالبدء بمذابح (صاصون) وتهجير الأرمن من هذه المنطقة ، ولما ابتدأت القبائل بفعلتها أرسل الخيالة الحميدية للإجهاز على الأرمن عام 1894 ، وبدأ الهجوم على منطقة « صاصون » تحت يافطة سلطانية « صاصون بلا صاصونيين » .

ثم تواصلت المذابح الأرمنية العامة ، وامتدت إلى المناطق الأرمنية الأخرى في العديد من الولايات العثمانية بين عام 1895 ـ 1896 وذهب ضحيتها 300,000 أرمني ، واغتصب المهاجمون من القبائل والخيالة الحميدية كثيراً من الأراضي الأرمنية الجديدة .

لم يكتف عبد الحميد بذلك ، بل كان يطمح إلى مزيد من الدماء الأرمنية والمآسي ليشبع نهمه السادي ، فلما أعلن الدستور العثماني عام 1908 فرح الشعب بذلك ، وتعانق الناس في الشوارع على مختلف مذاهبهم وجنسياتهم ، وأخفى الأرمن جراحهم وتناسوا ما مرّ بهم وبأسرهم وبقراهم ، وكانوا أكثر الشعوب العثمانية دعوة إلى الإخاء والعمل في سبيل هذه الدولة ، ولكنّ السلطان كان يخبّىء لهذا الشعب الأحقاد وينسج المكائد ويدبّر المآسي في الخفاء ، فافتعل الصدامات الجديدة التي حدثت في أضنة وكيليكية عام 1909 ، وذهب ضحيتها ثلاثون ألفاً من الأرمن المسالمين ، وساعد عبد الحميد على ما قام به ثلاثة أمور : النفاق الدولي إزاء القضية الأرمنية ، ويتجلّى ذلك واضحاً في تغيير سياسة هذه الدولة أو تلك من الدول الأوروبية تجاه ما يحدث للشعب الأرمني ، وذلك وفق المكتسبات التي تحصل عليها من السلطان عبد الحميد ، فقد اشتركت الدول الأوروبية جميعها في هذه الجريمة ، فألمانيا كانت تقف إلى جانب السلطان لاستخدامه في الوصول إلى الخليج العربي ، وقطع الطريق على الطموحات البريطانية في الوصول إلى الهند، وكانت بريطانية تطمح هي الأخرى إلى أن ترث أكبر مساحة من الأرض العثمانية في شمالي أفريقية وغيرها إضافة إلى قبرص ، وفرنسة التي ظلّت قريبة من السلطان العثماني كانت هي الأخرى تطمح إلى أن ترث المساحة الكبرى إضافة إلى احتلالها لمراكش والجزائر وتونس ، حتى روسية الدولة

العدوة لتركية ، كانت هي الأخرى تتاجر بالشعب الأرمني وبدمه وقضاياه في سبيل الحصول على أكبر مغنم من الدولة العجوز ، ولذلك أخذت الدول تماطل الأرمن وتمنيهم في الوقت ذاته ، فكانت المعاهدات تتغيّر من مؤتمر إلى مؤتمر ، وهي تسمع مرة ولا تسمع أخرى ، وهذا ما جعل عبد الحميد يتمادى في غيّه واستبداده وإبادته للشعب الأرمني .

ب ـ مرحلة الاتحاديين الطورانيين 1909 - 1919 :

استولى الاتحاديون الطورانيون على السلطة عام 1909 تحت ستار جماعة « الاتحاد والترقي » ، وعزلوا السلطان المستبد عبد الحميد الثاني ، وظنّت الشعوب التي تعيش تحت سيطرة الحكم العثماني أن زمن الظلم ولّى وأن عهداً من الإخاء والحرية والمساواة حلّ في البلاد العثمانية ، ولكنّ الاتحاديين سرعان ما كشّروا عن أنيابهم وقلبوا ظهر المجنّ لهذه الشعوب التي أعانتهم على الوصول إلى سدّة الحكم ، وبدؤوا بنشر السياسة الطورانية التي ترمي إلى القضاء على الأمة الأرمنية قضاء مبرماً وتتريك العناصر غير التركية ، وخاصة العنصر العربي ، وكانت السياسة الطورانية تسعى إلى إقامة امبراطورية طورانية من القوميات التركية التي تمتدّ ما وراء جبال القوقاز حتى حدود تركستان ، وتقوم هذه الامبراطورية على أواصر عرقية .

وكانت حركة التتريك في أرمينية أقوى نظراً لموقعها الجغرافي الذي كان يشكّل العقبة الرئيسية في طريق تحقيق الحلم الطوراني ، فلجأ الاتحاديون إلى الاستبداد والتنكيل والتهجير ، وكانت الحكومة التركية تدفع الأرمن العثمانيين لقتال أخوتهم الأرمن في روسية للتخلّص منهم معاً ، ثم قامت بعد ذلك بما سيأتي الحديث عنه .

ولجأ الأرمن إلى الدول الأوروبية للنظر في مشكلتهم مع الدولة العثمانية ، فكانت روسية وفرنسة إلى جانب المطالب الأرمنية . أما ألمانية فكان لها موقف آخر تخطّط له ، وكانت سياسة الامبراطور غليوم الثاني الذي زار السلطان عبد الحميد الثاني قبل خلعه وبسمارك ترمي إلى الزحف شرقاً بوساطة الدولة العثمانية العجوز وتقوية جيشها ، ولذلك كانت إلى جانب الاتحاديين .

ولما بدأت الحرب العالمية الأولى عام 1914 استغلّ الاتحاديون هذه الفرصة للخلاص من الشعب الأرمني والمسألة الأرمنية ، فابتدؤوا بالمذابح على عجل ، وشكّلوا لهذه الغاية لجنة من الدكتور ناظم والدكتور بهاء الدين شاكر ووزير التربية شكري الذين أطلقوا سراح عشرة آلاف مجرم وسارق من السجون ثمّ أمروا بتسليحهم وتنظيمهم ضمن فرق إرهابية تكون مهمتها القضاء على قوافل المهجّرين من الأرمن قضاءً مبرماً .

وحين أخذ الجيش التركي بالهجوم على الجبهة القوقازية تعرّض الشعب الأرمني لاعتداءات الجيش على نحو ما فعلوا بأهالي بلدة زيتون الذين أحرقوا وهم في الدير وهُجِّر الباقي منهم ومات على الطرقات ، وعلى نحو ما فعلوا في قرية شاداخ وأرجيش ووادي الأرمن (هايوتس تسور) ولما وجد الاتحاديون أن الشعب الأرمني أخذ يتجمّع في جبال صاصون ، وأنه يبدي بسالة في المقاومة ، وأن هناك رغبة منهم في مقاومة الظلم والدفاع عن النفس رأوا أن خير طريقة للتخلّص من الشعب الأرمني هي في « الضرب على الرأس » ، وتتلّخص هذه الطريقة في القبض على زعماء الأرمن ومفكريهم وقادتهم والخلاص منهم ، ليسهل عليهم بعد ذلك إبادة الشعب .

وبدأت خيوط هذه المجزرة تحاك في الأستانة يوم 24 نيسان 1915 إذ اعتقلت الشرطة 225 شخصية من أعظم شخصيات الأرمن من أدباء ورجال دين ومفكرين ، وتوجهت بهم إلى أنقرة ، فقتلوا 75 شخصية في أياش و 150 في تشانغر ، وبدأ الجيش الاتحادي بعد ذلك بإبادة الشعب الأرمني ، فداهم المنازل بحجة جمع الأسلحة لينهبوا ويقتلوا ويهجروا شعباً بأسره .

استغلّ الطورانيون إصدار قانون التهجير الذي أصدرته الدولة العثمانية في 4 آيار 1915 ، وجاء في القانون المذكور :

1 ـ يجب على كلّ القادة العسكريين وكلّ المسؤولين عن أمن البلاد خلال فترة الحرب اللجوء إلى أقسى السبل ـ وعن طريق القوات المسلحة ـ لاخماد كلّ فتنة بقوة السلاح أو أيّ سبيل آخر لتحطيم كلّ تمرد .

2 ـ يمكن للقادة العسكريين ـ وحسب سير العمليات العسكرية ـ تهجير السكان أو الأفراد الذين يتجسّسون على الدولة ويتآمرون ضدها

وإسكانهم في أماكن أخرى .

3 ـ يعمل هذا القانون من تاريخ صدوره (20) .

إن المراد من وضع هذا القانون واضح للعيان وهو إبادة الجنس الأرمني وتهجيره تحت مظلّة القانون ، وهذا القانون ما وضع لولا هذه الغاية . إن اقتلاع السكان من أماكنهم وإسكانهم في أماكن أخرى أيّ تهجيرهم هو المقصود من القانون الذي خطّط له في الخفاء ، ودرس ليكون العمل الوحشي بعد ذلك قانونيّاً . وما إن نشر القانون حتى اشترك أمناء حزب الاتحاد والترقي أنفسهم في النشاطات الإجرامية ، فقاموا مع الجيش والشرطة بتهجير الأرمن القسري وإبادة وسرقة أموالهم ونهب ممتلكاتهم مستغلّين بذلك « قانون التهجير المؤقت » ، ثم سلّطوا على النسوة والأطفال رجال عصابة « التشكيلاتي مخصوصة » ليفعلوا ما يندى له الجبين الإنساني قسوة ووحشية ، وتؤكّد جلسات محاكمات زعماء الاتحاد والترقي التي جرت بين عامي 1919 ـ 1920 اشتراك هذه الجماعة في التخطيط والتنفيذ لكلّ ما حدث للأرمن (**21**) .

و لم تكن عمليات الإبادة والتهجير مقتصرة على منطقة دون أخرى ، ولكنّها عمّت مناطق الامبراطورية ، ونفّذت بدقة وبتخطيط من المركز الخاص للحزب بتعليمات شفهية أحياناً أو أوامر مشفرة أحياناً ، وكان بعض السذج يظنون أن عصابة « التشكيلاتي مخصوصة » ستشترك في العمليات الحربية كمتطوعين ، ولذلك قامت اللجان الحزبية تحت هذه المظلة بخلق فروع لها في المناطق ليسهل على هؤلاء التنقل من جهة والسرعة في التنفيذ من جهة .

كان تنفيذ الخطة محكماً سريعاً إذ اشتركت عصابة « التشكيلاتي مخصوصة » تدعمها قوات نظامية من هنا ومن هناك بتنفيذ أكبر مجزرة عرفها التاريخ البشري ، وكانت العصابة نشيطة تحت إشراف طلعت وأنور وجمال الجادين في الانتهاء من المسألة الأرمنية ، وبلغ عدّد المهجّرين من ديار بكر 120 ألف ، وأبيدت قوافل المهجّرين عن بكرة أبيها على مساحات كبيرة من أرضروم إلى منطقة كيغي ، وكان الأرمن ينقلون إلى عرض البحر الأسود ويرمون فيه فيغرقون على علم من وزير الداخلية طلعت باشا (**22**) .

وكان الثلاثي طلعت وأنور وجمال يريدون أن ينتهوا من الأرمن إلى الأبد بسرعة ،

ولذلك تمَّ إبعاد الولاة الذين يرفضون تنفيذ أوامر وزير الداخلية كجلال بك والي قونية وغيره ، أو الذين يتباطؤون في تنفيذ المجازر (23) ، كما كان يتمّ طرد الولاة الذين يرفضون تهجير الأرمن وإفنائهم من وظائفهم ، ومنهم مظهر بك والي أنقرة ورشيد بك والي قسطموني (24) .

الهدف من ترحيل الأرمن على دفعات تقتيلهم بدقة متناهية والحرص على عدم فرار أيّ قادر حتى غصّت الأرض بالجثث ، وكانت الطرقات تؤدي كلّها إلى الموت ، والتهمة الوحيدة أنهم أرمن . كتب السفير الأمريكي مورغنطاو وكان شاهداً على المجازر :

« قبض على الرجال الأرمن في أنقرة بين سن (15 – 70) وربطوا كلّ أربعة ببعضهم ، وأرسلوا باتجاه مدينة القيصرية . وبعد مسيرة خمس أو ستّ ساعات وصلوا إلى واد منعزل هاجمهم فيه غوغاء من الفلاحين الأتراك بالهراوات والمطارق والفؤوس والمناجل والمجاريف والمناشير . تلك الأدوات لم تكن تسبب الموت الفظيع بالمقارنة مع القتل بالأسلحة والمسدسات وحسب ، بل – كما يقول الأتراك أنفسهم – كانت تلك الطرق أكثر اقتصادية ، لأنهم لم يضيّعوا سدى البارود والأغلفة النحاسية . بهذه الطريقة أبادوا كلّ السكّان الذكور بمن فيهم المثقفون والأغنياء في أنقرة . وتركت أجسامهم المشوهة بشكل مفزع لتفترسها الحيوانات المتوحشة في الوادي » (25) .

ج - مرحلة تركيا الكمالية 1919 - 1923 :

لم يكتف الطورانيون الاتحاديون ومن جاء بعدهم بالمجازر التي ارتكبوها بحقّ الأرمن وتهجيرهم من ديارهم ، ولكنّهم حاولوا اجتثاث جذورهم الحضارية ، فاستهدفوا الفن الهندسي المحض ، وكان في أرمينية الغربية الخاضعة للسيطرة التركية عام 1914 مئتان وعشرة من الأديرة إضافة إلى أعداد كبيرة من الكنائس الأثرية ، وتعدّ متاحف عامرة بما تضمه من النفيس النادر من ذخائر وبقايا القديسين والمخطوطات والزخارف ، دعك من

الحصون والقلاع والقصور والجسور والقناطر وسواها ، وقد بدأ تدمير هـذه المعـالم منـذ عـام 1880 ، واستمر في عهد تركية الكمالية ، وكلّ ذلك ليس غريباً على مـا تقـوم بـه النزعـات العنصرية الثلاث : النازية والصهيونية والطورانية ، فالنازية دمرت نصـف أوروبـة ، وجعلـت البلاد التي دخلتها ركاماً ، وقد خطب هتلر في جنوده يدعوهم إلى أن يفعلوا ذلك صراحـة . ومـا فعلتـه الصهيونيـة في فلسـطين المحتلـة أولاً وفي القنيطـرة ثانيـاً قبـل أن يجـبروا علـى مغادرتها حيث دمروا كلّ شيء بما في ذلك القبور والمساجد والكنائس أكبر دليـل علـى هـذا الحقد الأعمى . و الطورانية وليدة هاتين الـنزعتين ، النازيـة مرحلـة متقدمـة مـن النيتشـوية ، والصهيونية أم الطورانية التي أرضعتها كراهية الشعوب .

وتطورت القضية الأرمنية في عهد المرحلة التركية الكمالية ، وهي مرحلة أخرى واستمرار لما قبلها ، ولكنّ الوضع الدولي تغير بخروج تركية وألمانية خاسرتين في الحرب العالمية الأولى ، فكان مؤتمر الصلح الـذي عقـد في كـانون الثـاني عـا م1919 في بـاريس ، وأعلـن فيـه عـن استقلال المقاطعات العربيّة والأرمنيّة .

ولما أعلنت الجمهورية الأرمنيّة قبل مؤتمر الصلح وبعـد انتهـاء الحـرب العالميـة عـام 1918 كان لجماعة تركية الكمالية دور آخر في طمس الحقائق التاريخيـة يعـدّون لـه ، ففـي معـاهدة سيفر 10 آب 1920 وردت مطالب واقعية تخص الشـعب الأرمـني ، وقعتهـا الدولـة التركيـة والدول الحليفة ، وفيها تمّ الاعتراف بأرمينية دولة حرة مسـتقلة ، وتشـمل ولايـات أرضـروم وطربزون وفان وبيتليس ، وتنص المعـاهدة علـى أن يكـون لهـذه الدولـة منفـذ علـى البحـر ، وتشمل مساحة قدرها 72 ألف كم2 ، ولكنّ المعاهدة لم تنفذ ، وسرعان مـا نقضتهـا تركيـة الكمالية ، و لم تكن لدى الحلفـاء الإرادة علـى فـرض مـا اتفقـوا عليـه ، ووقفـت دون عـودة الأرمن إلى ديارهم أو إعادة الممتلكات المنهوبة إلى أصحابها .

وجاءت معاهدة لوزان 24 تموز عام 1923 فأدار الحلفـاء وجوههـم عـن قضيـة الأرمـن ، ونسوا الجريمة الكبرى التي اقترفت بحق هذا الشعب ، فلم يرد في المعـاهدة أيّ ذكـر لأرمينيـة أو الأرمـن ، وإنمـا جـاء الحديـث عامـاً عـن حقـوق الشـعوب غير الاسـلامية والأقليـات في الدولة التركية ، ويبدو أن توقيـع المعـاهدة يشـكل خرقـاً للقـانون الـدولي ومبـدأ حسـن النيـة خاصة أن أرمينية التي كانت طرفاً في معاهدة سيفر لم تكن كذلك في معاهدة لوزان (26) .

أما المذابح في ظلّ الجمهورية التركية فهي أيضاً استمرار للمذابح في ظل الاتحاديين الطورانيين وللمذابح في ظل عبد الحميد الثاني ، وقد قتل الأتراك في عام 1920 خلال الحرب التركية الأرمنية 6 آلاف مدني في مدينة كارس ، وجنّدوا أكثر من 3 آلاف شاب لأعمال السخرة في الأناضول ، وقد هلك معظمهم نتيجة للمعاملة السيئة ، وقتلوا حوالي 60 ألف أرمني حين احتلوا الكسندروبول بعد أن نهبوا وسلبوا جميع القرى الأرمنية ، واستمر الأتراك في اغتصاب الفتيات أمام ذويهن ، وهذا ما فعلوه عقب احتلال كيليكيا خلال عامي 1921 - 1922 ، وأوعزا إلى ما تبقى من الأرمن على قيد الحياة في عينتاب ومرعش وأورفه ومناطق أخرى بأنه من الأفضل لهم مغادرة البلاد . وقد أرغم هؤلاء وسواهم على المغادرة إلى سورية بجوازات سفر تركية مختوم عليها : « لا يسمح لحاملها بالعودة إلى تركيا » (27) .

أسباب المجازر الأرمنية :

نستطيع من خلال قراءة الوقائع التاريخية والوثائق العينية التي شاهدها الكثيرون وسمعوها عن المجازر الأرمنية أن نعيدها إلى الصراع بين الحضارة واللاحضارة ، وهي في ذلك كلّه نوعان: أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة .

الأسباب غير المباشرة :

وهي الأهم في رأينا لأنها الأسباب التي أدت إلى استمرار المجازر على مسافة زمنية كبيرة ومحاولة الوصول بها إلى النهاية ، وتتجلّى في طمع الدول العظمى والمنظمات العالمية في اقتسام تركة الرجل المريض ، والتناقس على اقتسامها والوصول إلى البلاد التي تحكمها والبلاد التي تجاورها لبناء امبراطورية استعمارية أوروبية أو سواها ، وقد وضعت مصلحتها فوق مصالح الشعوب المستضعفة الصغيرة ، ولذلك تناسى العالم الجريمة التي نفذت على مرأى من عينيه بحقّ الشعب الأرمني في معاهدات كثيرة ، ومنها معاهدة لوزان ، وقبلها معاهدة برلين ، أو كما يقول منير أبو فاضل :

« وإذا بالمواقع والمواقف تثبت أن هذه الدول تقف عمليّاً إلى جانب الظالم

ضدّ المظلوم ومع الباطل ضدّ الحقّ » .

ويمكننا أن نتوقف في هذا المجال عند الدول الكبرى والمنظمات الإرهابية التي كانت تطمع بنصيب عظيم لها في تركة الدولة العجوز ، ومنها الدولة الألمانية والبريطانية والفرنسية والروسية والمنظمة الصهيونية العالمية وسواها .

1 ـ الدور الألماني في المجازر الأرمنية :

كانت الدولة الألمانية تخطّط لتأسيس امبراطورية ألمانية تقوم على ضرب المصالح الانكليزية والروسية في الشرق والاستفادة من خطّ برلين ــ بغداد الحديدي ، ولذلك أخذت تتقرّب من السلطان العثماني عبد الحميد سرّاً للوقوف معه ضد الأطماع الروسية من جهة ، وتهجير الأرمن من بلادهم من جهة ثانية وربما المشاركة بعد ذلك في مجازرهم. ومن مظاهر ضلوع الدولة الألمانية في المجازر الأرمنية وتهجير الشعب أن سفير ألمانية وانغنهايم كان يردّد دائماً للسفير الأميركي أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً للأرمن ، وهو يصرّح بأن الأرمن أظهروا أنهم أعداء الأتراك .. وكان يزيد على ذلك بقوله : « واضح جداً أن الشعبين لا يمكنهما أن يتعايشا في نفس البلد » .

وكذلك كان هومان الملحق البحري الألماني في القسطنطينية تركياً أكثر من الأتراك ، واتحادياً أكثر من أنور وطلعت وجمال ، وكان هذا الرجل صلة وصل بين السفارة الألمانية والسلطات العسكرية التركية ، وقد قال : « عشت أكثر حياتي في تركيا » ، وقال :

« أعرف الأرمن ، وأعرف أن الأرمن والأتراك لا يمكنهما أن يتعايشا في هذا البلد ، يجب على عرق واحد منهما أن يذهب ، لا ألوم الأتراك على ما يفعلون بالأرمن . أظن أنهم مبررون بالكامل . الأمة الأضعف يجب أن تخضع وتموت . يريد الأرمن تقطيع أوصال تركيا . هم أعداء الأتراك والألمان في هذه الحرب ولذلك لا يحقّ لهم أن يحيوا هنا » (28) .

وثمة تأكيدات تبين بما لا يقبل الشك أن الألمان حموا جمعية « تركيا الفتاة » وأن جنودهم اشتركوا في عمليات الإبادة وفي عمليات التهجير ، حتى إن القيصر الألماني في أثناء

المذابح الأرمنية الكبرى صرّح بـ « أنه ليس مستعداً لاستبدال عظام جندي بروسي واحد بكلّ المسألة الشرقية » .

ويحمّل مؤلف كتاب « شهادة الأرمن » تبعة إبادة الأرمن على الدولة التركية أولاً وعلى كاهل ألمانيا ثانياً ، فهي قد كانت على علم بمخططات التهجير والمجازر وأن سفيرها في تركيا لم يرغب في توقيف المجازر ، بل نجح في إقناع حكومته بأن تقف بالسرّ إلى جانب حكومة الاتحاد للاستفادة من نقل الأرمن إلى صحارى العراق ، لتؤمن للحكومة الألمانية اليد العاملة مجاناً من أجل تنفيذ مشروع السكة الحديدية بين استانبول وبغداد ، وكانت الحكومة الألمانية تمنع نشرأخبار المجازر، وتنكرها ، بل ذهب الألمان إلى أبعد من ذلك فاتهموا الشعب الأرمني بخلق الفوضى والتمرد والخيانة . والأدهى من ذلك كلّه أنه وجد في القرى التركية جنود ألمان وعملاء شاركوا علنا إلى جانب « التشكيلاتي مخصوصة » في إبادة الأرمن ، بل عملوا إلى جانب ذلك في تجارة النسوة والفتيات الأرمنيات (29) .

ويسوق فائز الغصين في كتابه « المذابح في أرمينيا » تأكيدات ووثائق عن دور الألمان في المجازر الأرمنية والعربيّة فيقول :

« كنت كلّما صار البحث عن الأرمن ألوم الأتراك على فعلتهم ، ويوماً بينما كنا نتكلّم في هذه المسألة ونلوم الأتراك إذ قال مأمور من مأموري ديار بكر وكان أحد شبان الأتراك المتعصبين ، لا لوم على الأتراك في هذه المسألة فإن الألمان هم من طبق المعاملة ذاتها على البولونيين إذ كانوا تحت حكمهم ، وقد أجبر الأتراك على ما فعلوا حين قالوا لهم إذا لم تقتلوا الأرمن فلا اتفاق معكم » (30) .

من أجل ذلك أخذت الدولة الألمانية تسوغ جرائم الأتراك وتدافع عن القاتل ، وتدّعي أن الأتراك كانوا في حالة الدفاع عن النفس وأن الأرمن خانوا الدولة العثمانية وقاموا بعصيان مسلح عليها .

كانت الأهداف الألمانية ومخططاتها تدعو إلى الصمت عما فعله الأتراك بالأرمن والعرب ، بل هي التي دفعت الأتراك إلى أن يقوموا بذلك من خلال سياسة الامبراطور غليوم الثاني والمستشار بسمارك ، وهي السياسة التي وعدها بالزحف شرقاً ، ولعل اخفاق الجبهتين في

الحرب جعل أنور وطلعت وجمال يفرون إلى ألمانية بعد أن وقّعت الدولة العثمانية هدنة مودرس مع الحلفاء في تشرين الأول عام 1918 ، كما يمكن أن يعذى ذلك إلى الروابط المتينة السابقة التي كانت تربط بينهما ، وقامت الجماعات الأرمنية السرّيّة بالانتقام للشهداء من الشعبين الأرمني والعربيّ معاً بقتل طلعت وجمال وأنور وسواهم .

2. الدور الانكليزي في المجازر الأرمنية :

لبريطانيا دور غير مباشر في المجازر الأرمنية ، فهي خشيت من التغلغل الروسي القيصري في البلاد العثمانية بعد معاهدة « سان ـ ستيفانو » ، فعقدت اتفاقاً سريّاً مع الدولة العثمانية لتعديل المادة (16) القاضية بقيام الإصلاحات في المناطق الأرمنية مقابل سكوت الدولة العثمانية على احتلال بريطانية لجزيرة قبرص ، وهكذا استطاعت أن تجبر روسيا القيصرية على إحلال المادة (61) محل المادة (16) في مؤتمر برلين ، وكانت المادة (61) حبراً على ورق أو تمييعاً للحق الأرمني ، وأناطت هذه المادة الجديدة الإصلاحات الأرمنية بالسلطان العثماني نفسه ، وكان هذا السلطان هو العدو الأول للإصلاحات ، وهذا ما دفع السلطان إلى أن ينظر إلى الأرمن على أنهم بلغاريون جدد تجب إزالتهم من الوجود .

ثم إن رئيس وزراء بريطانية السير غلادستون الذي كان متعاطفاً مع القضية الأرمنية في البدء تحوّل إلى جانب الأتراك بعدم إثارة قضية الإصلاحات الأرمنية دوليّاً من جديد عام 1881 استرضاء للدولة العثمانية وألمانية لكي لا تعارضا تدخلها في مصر الذي بدأ فعلياً عام 1881 إثر قيام الثورة العرابية ، ولذلك استفاد السلطان من هذه المعطيات فأسس الخيالة الحميدية وحرّض الأكراد على الأرمن ، ونفذ المجازر المتتالية بدءاً من عام 1894 .

3. الدور الروسي القيصري في المجازر الأرمنية :

كانت روسيا القيصرية عدوة تركيا هي الأخرى ذات مطامع اقتصادية في البلاد العثمانية وتدرك اللعبة التي تلبعها الدول الأوروبية ، ولذلك أخذت تترضّى السلطان على الرغم من الحروب المعهودة بين الدولتين ، ويبدو ذلك من خلال :

أ ـ أعدّت اللجان الثورية الأرمنية خطّـة للقيـام بهجـوم مسلّح على سـراي السلطان عبـد الحميـد الثـاني بالعاصمـة في أثنـاء الاحتفـالات في 31 آب 1896 في الذكرى العشرين لتوليه العـرش انتقامـاً منه علـى المذابـح الـتي ارتكبهـا بحـق الأرمن ، ولكنّ الحكومة الروسية نما إليها خبر هذه الخطـة فأبلغتهـا إلى الحكومـة العثمانية ، ولذلك قامت الدولة العثمانية بمذبحة كبرى للأرمـن في العاصمـة يـوم 26 آب 1896 بعد احتـلال القـوات الثوريـة الأرمنيـة للبنـك العثمـاني في اليـوم نفسه .

ب ـ لم تكن معاملة روسيا القيصريـة للأرمـن في بـلاد القوقـاز جيّدة ، بـل حـاصرتهم وعـاملتهم معاملـة اسـتبدادية ، وحـاولت القضـاء علـى شـخصيتهم القومية ، واعتبرتهم ملّة كما اعتـبرهم العثمـانيون ملّـة ، ولذلـك فـإن الأحـزاب الأرمنية التي تدعو إلى حرية البلاد وتوحدها وبقاء الشخصية الأرمنيـة مستقلّة ، ومنها حزبا الطاشناقستيون والهنتشاك دعـت إلى الوقـوف إلى جـانب الحركـات الثورية الأرمنية سواء أكان ذلك في البلاد العثمانية أم في روسية القيصرية.

4. دور الصهيونية العالمية في المجازر الأرمنية :

كانت أصابع الحركة الصهيونية العالمية وراء ما يجري في البلاد العثمانية للأرمـن والعـرب معاً ، وهي وراء النظرية الطورانية بهدف تقويـة النفـوذ الصهيونـي في الامبراطوريـة العثمانيـة ومساعدة الصهيونية العنصرية في ترجمة أطماعها في فلسطين .

وهنا لا بد مـن أن نتذكّـر يهـود « الدونمـة » ، وهـم اليهـود الإسبان الذيـن تدفقـوا إلى البلاد العثمانية عام 1492 بعـد أن طردهـم الإسبان ، فدخلـوا الإسـلام وأطلـق عليهـم اسـم « الدونمة » فتكوّنـت طبقة اجتماعية منهـم في مقدونيـا أصبحـت فيمـا بعـد احتياطـاً بشـرياً للصيهونية عن طريق المحافل الماسـونية ، ولمـا لم يستطع عبـد الحميـد أن يلـبي جميـع طلبـاتهم وطموحاتهم استطاعوا إزاحتـه عـن طريـق حـزب « الاتحـاد والـترقي » الـذي هيّأتـه المحـافل الماسونية في استانبول وسلانيك وإزمير لهذا الغرض ، وكان أنور باشا وطلعـت باشـا وجمـال باشا من أبرز رجال الحزب وهذا ما صرّح به المـؤرخ الانكليزي سيتون وطسـون في كتابـه

« نشوء القومية في البلقان » ، فقال : « إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية ، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها عضو واحد من أصل تركي صاف ، فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي مرتدّ ، وجاويد من « الدونمة » ، وكراصو من اليهود الإسبان ، وطلعت باشا من أصل غجري اعتنق الإسلام ، وهكذا فإنّ أصحاب العقول في هذه الحركة كانوا يهوداً ، أو يهوداً دخلوا الإسلام ، وأما الدعم المالي فكان يأتيهم من أغنياء اليهود » (31) .

الأسباب المباشرة :

هي الأسباب الداخلية ، فقد كان العثمانيون يعاملون الأرمني والعربي والبلقاني على أنه مواطن من الدرجة الثانية ويحتقرونه وخاصة في عصر التتريك ، دون أن يلتفتوا إلى التضحيات الجسام التي قدّمها هؤلاء في سبيل الامبراطورية العثمانية من جهة وفي سبيل دولة الاتحاديين من جهة ، ثم إن العنصر الأرمني كان عنصراً فعّالاً في الصناعة والتجارة والزراعة ، ولما حاول الأرمن أن يطالبوا حكامهم بالإصلاحات الموعودة وإبعاد الظلم والتعدّيات عنهم اغتنمت الدولة التركية هذه الفرصة ، فراحت تخطّط للجرائم المتتالية وللخلاص من الشعب الأرمني على مبدأ « فرّق تسد » .

ثم إن العنصر الأرمني عنصر حضاري خلاّق منتج بطبعه والعنصر التركي متباه ، متنمّر ، ولذلك استطاع الأرمن في المدن أن يثبتوا وجودهم ، وهذا ما أزعج الحكام والشعب معاً . يروي السفير الأمريكي محادثة جرت بينه وبين وزير الداخلية طلعت باشا الذي شرح فيها موقف الطورانيين من المسألة الأرمنية حول ثلاث نقاط :

الأولى : أنهم أثروا على حساب الأتراك ، والثانية قرر الأرمن أن يهيمنوا علينا بتأسيس دولة منفصلة ، والثالثة ساعدوا أعداءنا علينا . ساعدوا الروس في القوقاز هناك بسبب تصرفاتهم تلك . لذلك جئنا إلى القرار النهائي أنه يجب علينا أن نضعفهم قبل نهاية هذه الحرب (32) .

هكذا يعيد وزير الداخلية التركي إخفاق الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ضد

الروس إلى الأرمن ، وهكذا أعاد غيره إخفاق الأتراك على جبهة السويس إلى العنصر العربي المحكوم ، مع أن الأرمن والعرب لم تكن لهم يد في ذلك ، فالأرمن في القوقاز أو في غيرها معرضون للخدمة العسكرية كالعرب تماماً في الولايات العربيّة ، ولكنّ المهم عند الاتحاديين الوصول إلى تحقيق الحلم الطوراني بأيّ ثمن كان ، وتنفيذ رغبات أسيادهم الألمان والصهاينة ، فإذا أخفقوا في الحرب ألقوا التبعة على الأرمن والعرب ، ونالوا من الشعوب التي تقع تحت سيطرتهم ليشبعوا نهمهم السادي وطبيعتهم العنصرية العدوانية .

على كلّ حال يمكننا أن نكشف أسباب مذابح الأرمن المباشرة وغير المباشرة في النقاط الآتية :

1- حلم الأتراك في إقامة دولة طورانية تمتد من القسطنطينية حتى حدود الصين ، وكان الأرمن بسبب موقعهم الجغرافي يشكلون العائق الوحيد إزاء تحقيق هذا الهدف .

2 - بعد تحرر البلغار واليونان من ربقة الحكم التركي أدرك العثمانيون أنه جاء دور الأرمن للمطالبة بالتحرر ، وكان هؤلاء يعيشون في منطقة تضم أكثرية تركية ، ومن هذه الناحية فإن ضياع بلغارية واليونان ومصر والجزائر وليبية لن يؤثر على الأتراك بمثل ما سيؤثر ضياع أرمينية وفيها العدد الأكبر منهم .

3 - بافناء الأرمن أو بإبادتهم إبادة جماعية كانت الدولة العثمانية ستتخلص منهم ومن قضيتهم إلى الأبد .

الفصل الرابع

النضال العام والنضال المشترك

النضال هو الكفاح أو المقاومة والدفاع عن حقّ مسلوب ، وأشدّ أنواع النضال قساوة وأولوية هو ما يكون نتيجة لتنازع البقاء والوجود ، وهو لا يكون إلا في ظلّ الدول ذات النزعات العنصرية كالنازية والصهيونية والطورانية ، وهذا يعني أن هناك طرفين متقابلين في صراع دموي وسياسي واقتصادي وسوى ذلك ، وأن هناك طرفاً مستغِلاً ، وطرفاً مستغَلاً ، طرفاً طامعاً قويّاً عنصريّاً ، يحاول استلاب ما عند الآخر من أرض وحضارة وثروات وانتهاك حرماته وأعراضه ، وطرفاً ضعيفاً يدافع عن أسباب وجوده وبقائه .

وعرفت الأمتان العربيّة والأرمنية أنواعاً من هذا النضال في سبيل بقائهما ، فقد كان الطرف العثماني ـ الطوراني يطمح إلى استغلالهما وتغييب حقوقهما الملموسة وأن يهيمن على البلاد الأرمنيّة والبلاد العربيّة ، ويتصرف بهما كما يشاء ، ينهب الثروات ، ويغتصب الحقوق ، وينتهك الأعراض ، ويدمّر المعالم الحضارية ، ويكمّ الأفواه ، ويمحو الشخصيات القومية ، ويهجّر هذا الطرف من أرض آبائه وأجداده ليحلّ فيها أعوانه وزبانيته ومن شاكلهم .

ولكنّ الأحرار من هاتين الأمتين كانوا لهذا العاتي الطاغية بالمرصاد ، فقاموا ينشرون الوعي سرّاً وعلانية بين أفراد شعبيهما ويذكّرانهم بأنهم من أصحاب الأمم التي كانت تجول وتصول بين الأمم السالفة ، وأن مجدهم التليد لا يزول بمجرّد كبوة أو حدث طارئ ويبيّنون لهم الحقوق والواجبات ويرغبونهم بثمار الحريات التي تنعم بها الأمم الأخرى ، وهذا ما أفقد الطاغية عقله ، فراح ينشر هوله في طول البلاد وعرضها وينشر جواسيسه هنا وهناك ويلاحق هؤلاء المفكرين داخل البلاد وخارجها ، وينصب المشانق ، ويستخدم دسائسه ومكائده في تحريض هذا على ذاك .

واستطاع هؤلاء الأحرار أن يوصلوا أصواتهم وأصوات أممهم إلى مسامع الأمم الأخرى والرأي العام العالمي ، وأن ينقلوا إلى الشعوب القوية صورة عما يجري في البلاد ، فكانت « المسألة الشرقية » .

يعرّف صاحب كتاب « ثورة العرب » المسألة الشرقية بقوله : « إنها نزاع شديد بين الأمة التركية والأمم التي تحت حكمها أو التي كانت تحت حكمها من جهة ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لسدّ أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى » .

وأخذت هذه المسألة تتراوح بين المدّ والجزر بحسب الدول العظمى التي تتدخل فيها وبحسب مصالحها ، فقد كانت أولاً بين روسية وبروسية ، ثم تدخّلت فرنسة في الأمر ، ثم بدأت تتعقّد بدخول روسية الحرب ضد الدولة العثمانية ، ثم دخول بريطانية وتدخلها في هذه المسألة المعقدة ، ولكنّ المسألة الشرقية كانت مع العرب والأرمن غيرها مع الشعوب البلقانية ، أو أن مسألة الشعوب البلقانية قد حُلّت على حساب العرب والأرمن معاً لتراجع الدول العظمى في حقوق العرب والأرمن وتشدّدها في حقوق الشعوب البلقانية مع الدولة العثمانية .

كان الطاغية إذن واحداً هو العثماني الطوراني التركي ، وكان العرب والأرمن وحضارتهما المستهدفين من طغيان الترك ، ولذلك فإننا سنتوقف ـ هنا ـ عند :

1 ـ نضال العرب ضد الأتراك .

2 ـ نضال الأرمن ضد الأتراك .

3 ـ نضال العرب والأرمن معاً ضد الأتراك .

1ـ نضال العرب ضد الأتراك :

وقعت الأمة العربيّة تحت سيطرة العثمانيين مدة طويلة ، وكان العثمانيون في البداية أقوياء استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم وأن يفتتحوا بلاداً واسعة ضموها إلى الخلافة الإسلامية العثمانية ، ولكنّ انتصاراتهم هذه التي كان للعرب دور كبير فيها جعلتهم فيما بعد ـ وخاصة في زمن انحلال دولتهم وانهزاماتها ـ يحتقرون الأمم التي يحكمونها ، مسلمة كانت أم غير مسلمة ، ويعاملون رعاياها معاملة العبيد ، وينشرون الظلم والاستبداد

والجهل في كلّ مكان ، ثم أخذوا يحتقرون الجنس العربيّ خاصة ، وهم يتناسون أنه صاحب الرسالة الإسلامية ، وأخذوا يستولون على ثروات البلاد بقانون يسنّونه أو بغير قانون ، حتى غدا العربي ذليلاً في بلاده وسادته من العثمانيين ، وشجّعوا ولاتهم والإقطاع المتعاون معهم على أن يعيثوا بالبلاد فساداً ، فنهبوا القرى وشرّدوا السكّان ، وأحرقوا ودمّروا ليلاً ونهاراً دون تمييز أو رحمة ، وقد وصف المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي صورة الحياة في مصر قبيل الغزوة الفرنسية (1798 ــ 1801) وما كانت عليه البلاد من التخلّف والفوضى والغلاء والظلم والسخرة ، كما وصف ما كان يقوم به أولياء الأمور من نهب القرى المصرية ، وما كان يصحب النهب من حرق المنازل وتدمير المؤسسات الاقتصادية ، ناهيك عن الجهل الذي استشرى في كلّ وجوه الحياة العامة والخرافات التي عمت هي الأخرى في العادات والتقاليد والمعتقدات ، وبدائية الوسائل التي كانت تستخدم في الزراعة التي كانت المورد الرئيس للبلاد .

أما الحالة في بلاد الشام والعراق فقد كانت أكثر رداءة وسوءاً نظراً لأن الاستبداد فيهما كان مباشراً ، ويروي الكثير من المؤرخين في القرنين الماضيين أن الجندرمة (الشرطة) كانت تمرّ على البلاد كما يمرّ الطاعون الأصفر أو الوباء الفتّاك ، تنهب وتدمّر وتجلد وتقتل ، تحمّل الفلاح المعدم غلال بيدره على ظهره بعد أن تجلده إلى حيث لا يعلم ولا يدري ولا يسمع ، ويتوارى الشبان من أمام وجه رجال السلطة ، لأن المقبوض عليه يجلد في الساحات أو في منزل المختار أو منزل الإقطاعي .

وهكذا ابتدأ الخوف يتحوّل إلى تململ من السلطة العثمانية وأعوانها وزبانيتها وخاصة بعد الانهزامات المتتالية التي منيت بها في أواخر حكمها في المغرب العربي أمام فرنسة وفي مصر بدءاً من غزوة نابليون ، وفي بلاد الشام بعد دخول الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا ، وفي اليمن والخليج العربي والجزيرة العربيّة . وتجلّى هذا التململ بعد ذلك في النضال الذي نتحدث عنه :

أ ـ النضال العربي في العصر الحميدي الأسود :

ثار سكان بلاد الشام على حكم محمد علي باشا ، ولعبوا دوراً هامّاً في إجلائه عن

بلادهم ، وهذا ما أكسبهم ثقة في النفس ونشر بينهم بذور التحرر والقومية ، وصار العربي قادراً على حمل السلاح ، سواء في الخدمة في الجيش المصري أو في الثورة عليه .

وسرعان ما امتدت الأفكار القومية إلى المتنورين العرب في لبنان الذين استفادوا من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية التي وجدت فيه ، كما استفادوا من مدارس الإرساليات التبشيرية باطلاعهم على الفكر البورجوازي الأوروبي ، وخاصة الثورة الفرنسية ومبادئها ، فأخذ هؤلاء يدعون إلى الرابطة القومية التي تجمع بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم ، فعملوا على إحياء الأدب العربي ، وعرّفوا إخوانهم بعظمة الحضارة العربيّة ، ونبّهوهم إلى قضاياهم الأساسية ، ومن هؤلاء ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وإبراهيم اليازجي وفرنسيس مراش وأديب إسحق وشبلي شميل وفرح أنطون ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وسواهم .

وتشكّلت في هذه الفترة الجمعيات السياسية والأدبية والأحزاب نتيجة الاستبداد العثماني من نخبة من شبان الوطن العربي وأدبائه ، ومنها : « الجمعية العلمية السورية » ، وكان لأعضائها نشاط سري أذهل جواسيس السلطان بإلصاق المنشورات الثورية التي تدعو إلى انفصال العرب عن العثمانيين ، وكان من أعضائها البارزين إبراهيم اليازجي ، وكان لقصيدته « البائية » دور كبير في إذكاء الفكر القومي النضالي ، ومطلعها :

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

أما الصحافة فقد كان لها الدور المجلّي في النضال ضد الاستبداد الحميدي ، وكانت الصحف تغلق هنا لتواصل نشاطها في مصر أو باريس أو لندن ، ومن الأمثلة على رجالات الصحافة في هذه الفترة المعلم بطرس البستاني صاحب « الجنان » و « الجنّة » و « الجنينة » وأديب إسحق ونجيب عزوري وعبد الرحمن الكواكبي وخليل مطران والأخوان تقلا وسواهم ، وهنا لا بد من أن نذكر ما كان للنضال الفكري والصحفي والسياسي والأدبي في المهجر الأمريكي ، وخاصة أن الكثير من المهاجرين قد تركوا ديارهم وأهلهم ووطنهم بسبب ما لحق بهم من استبداد عثماني بغيض ، وهناك راحوا يدافعون عن حقوق أمتهم في الحرية والاستقلال ، وينكرون أنهم ترك ، ويؤكّدون للقاصي والداني أنهم من جنس أرقى وحضارة أسمى .

ب ـ النضال العربي في عصر الطورانيين الاتحاديين :

كان النضال العربي في عصر الطورانيين الاتحاديين أقوى وأشدّ ، وذلك لأن المواجهة هي الأخرى صارت أحدّ وأشرس من المواجهة التي كانت في العصر الحميدي ، فقد كان الاستبداد بارزاً في أيّام عبد الحميد ، ولكنّ الوضع اختلف في عصر الطورانيين الذين سعوا إلى طمس الهوية القومية وملاحقة أحرار العرب ، أو التقرب منهم بقصد إبادتهم ، وقد ساعدهم على ذلك دخول الدولة التركية الحرب العالمية الأولى .

كانت الصلة بين أحرار العرب والاتحاديين قبل أن يستلموا الحكم عام 1909 قوية ، وقد أخلص الأحرار العرب للاتحاديين قبل الدستور وبعده ، وأخلصوا لهم بعد الإتفاق الذي أبرموه معهم في أواخر سنة 1913 وبعد إعلان الحرب العالمية الأولى عام 1914 ، وحاول أمراء العرب أن يحافظوا على الصلة بينهم وبين الأتراك حبّاً بالإسلام ، وهذا ما فعله الأمير يحيى في اليمن والأمير ابن السعود في الجزيرة العربيّة ، وهذا ما فعله شريف مكة مع أنه كان يدرك أن الاتحاديين يخبئون له ولأهل بيته وأسرته وللعرب كلّ شر ، وكان هؤلاء الأمراء يشدّون أزر الدولة في الحرب العالمية الأولى ، ويمكننا أن نتوقف عند ما كتبه أحرار العرب في ضرورة عضد الدولة في الحرب ومن ذلك كتاب الضابط سليم بك الجزائري ، وكتاب مختار بيهم ، وكتاب عبد الكريم الخليل الذي أرسله إلى أحد أصدقائه في آب سنة 1914 ، ومنه :

> **« أيّها العزيز ، إنا على وشك السفر إلى سورية لأن التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضي على كلّ عثماني مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام .. » .**

هذه الكتب السياسيّة السريّة تثبت إخلاص العرب للاتحاديين ، فقد تناسى العرب خلافهمْ مع الاتحاديين وانضموا إليهم دفاعاً عن الوطن المشترك ، وخاض جنودهم غمار المعارك على الجبهات ، واستشهد منهم عشرات الألوف ، ودفع العرب الأموال والتبرعات الحربية عن طيب خاطر ، ولكنّ الاتحاديين قابلوا هذا العمل الجليل بالنكران ، وانتهزوا فرصة الحرب ، وأعدّوا العدّة لسحق العرب والقضاء على فكرتهم القومية ومنعهم من العودة

ثانية إلى المطالبة بحقوقهم ، بل ذهبوا إلى أنه ينبغي لهم أن يعملوا على هدم الإسلام لأن الإسلام أساس القومية العربيّة .

وهكذا بدأ الاتحاديون يكشّرون عن أنيابهم وشمّروا عن ساعد الجدّ للخلاص من العرب ، ووضعوا هدفهم سحق الفكرة القومية في المهد ، وأبرزوا خططهم إلى حيّز الوجود ، فقربوا أحرار العرب إليهم وعينوا الفريق زكي باشا الحلبي قائداً على الجيوش المرابطة في سورية ، وتظاهروا بالإخلاص للعرب ، وظلّ هؤلاء مخلصين للدولة إلى أن أرسلت إليهم جمال باشا السفاح خلفاً للفريق زكي باشا الحلبي في منصب القيادة العامة في سورية ، فأخذ يبعد الضباط والجنود العرب عن سورية والعراق ، ثم قلب ظهر المجن فنصب المشانق وفتح أبواب السجون وطرق المنافي ، وأجرى يد المجلس العرفي في (عالية) ، وجعل مهمته التوقيع على أحكام الإعدام التي تصدرها جمعية « الاتحاد والترقي » في الآستانة ، ولم تمض بضعة أشهر حتى قضى على الأمة العربيّة في سورية أعظم قضاء ، فلم يترك فيها رجلاً من ألف يحسن القراءة والكتابة ، وحجته في ذلك أن هؤلاء يعملون لفصل سورية عن الدولة العثمانية ، وانتسابهم إلى « حزب اللامركزية » الذي كان يعمل على المطالبة بتأسيس حكومة على قواعد اللامركزية في جميع ولايات الدولة العثمانية شاهد على ذلك ، وحاول نفي العائلات العربيّة إلى بعض ولايات الأناضول .

وهبّ الزعماء العرب والأحرار في كلّ مكان يردّون على الاتحادي جمال السفّاح ادعاءاته وافتراءاته . قال السيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » وأحد زعماء حزب « اللامركزية » :

« كلّ ما احتج به جمال باشا لسفك الدماء وإجلائه الناس عن أوطانهم أباطيل . وقد قتل بعد من ذكرهم في بيانه عدداً ليس بقليل منهم السيّد عبد الرحمن الزهراوي الشهير ، وأول أباطيله تسمية القتل برأيه ورأي ديوانه العرفي قصاصاً ، وإنما القصاص في شرع الله أن يقتل الجاني بمن قتله بغير حق ومعناه في اللغة المساواة والمماثلة » .

وقال العرب في بيان سياسي نشر في المقطم (16 آب 1916) ردّاً على جمال باشا :

« ونحن نعلن رسميّاً على رؤوس الأشهاد أنه ليس بين الذين شنقوا

واضطهدوا مَن ضباط العرب والقائمين بالفكرة العربيّة من كان يفكّر في الانضمام إلى دولة أجنبية أو الانفصال عن الدولة العثمانية . وقد ارتكب جمال باشا ما ارتكبه من الفظائع والموبقات من غير أن يبدر في البلاد العربيّة أقل بادرة تشتمّ منها رائحة العصيان . فلم يفعل جمال باشا إلا ما فعله من قبل تيمورلنك وجنكيزخان وهولاكو وما يفعله الاتحاديون اليوم بقيادة عصبة من الأشرار السفاحين لم يخش زعيمها طلعت بك أن يصرّح على رؤوس الأشهاد بأنه « ذبح المجرمين والأبرياء من الأرمن نساء وشيوخاً وأطفالاً مخافة أن يكونوا في المستقبل عضواً فاسداً في جسم الدولة العثمانية»

ويذكر صاحب كتاب « ثورة العرب » صوراً من مشاهد البؤس التي عومل بها أحرار العرب وأسرهم ، كمعاملتهم لابنة الشهيد رشدي الشمعة وأسرته ، ومعاملتهم للأحرار وهم في طريقهم إلى أعواد المشانق في بيروت ودمشق ، ونقل عن شاهد عيان ما قاله المرحوم الشيخ أحمد طبارة قبيل شنقه ، وما نقله عن محمد المحمصاني الذي ودّع أخاه محموداً الذي شنق قبله بيوم واحد ، وقال له : « كنت في السجن أعرّب تاريخ استقلال إيطاليا التي تحرّرت بدماء أخوين شهيدين فما أسعد حظنا أنا وأخي محمود إذا كان موتنا حياة للأمة العربيّة » ثم هتف « فليحي العرب » وأزاح سدّة المشنقة من تحته .

والشهيد عبد الغني العريسي أوصى قبل تنفيذ الحكم به في رسالة طويلة بني أمته بأن الوحش التركي خرّب البلاد ودمّر البيوت ويتّم الأطفال ورمّل النساء وأذلّ الأحرار ، وبيّن في وصيته أن سورية خلت من ثلثي سكانها ، لأن من ينجو من المشنقة يميتونه جوعاً ، ومن كتبت له الحياة نفوه إلى الأناضول ، وهم يريدون تفريغ سورية من سكانها لكي يسكّنوا مهاجري الأكراد والأتراك ويعيدوا بواسطتهم تمثيل المأساة المفجعة التي مثّلوها بالعنصر الأرمني الشريف الباسل بالأمة العربيّة الكريمة .

ودعا العريسي في ختام وصيته إلى الالتفاف حول راية القومية العربيّة قائلاً :

« اعلموا أن أخوالكم هنا يقدمون أرواحهم ويضحون نفوسهم في سبيل القومية ، فلا تضنوا أنتم بالاتحاد والاتفاق . ألتمس منكم أن لا تفترقوا

فرقاً وطوائف فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب لا لبناني ولا بيروتي ولا شامي ولا حلبي ولا حمصي ولا حموي فحظّ بيروت هو حظّ لبنان وحظّ الشام وحلب وفلسطين والعراق والحجار واليمن » .

ثم كان النضال الأكبر والمواجهة الصريحة الفعّالة في الثورة العربيّة الكبرى 1916 حين أخذت الجيوش العربيّة تدحر فلول الاتحاديين من مكان إلى مكان وتلاحقهم من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية حتى تحررت البلاد العربيّة من رجس الطغاة الاتحاديين .

2 ـ نضال الأرمن ضد الأتراك :

لم يقف الأرمن أمة وشعباً مكتوفي الأيّدي إزاء الطغيان العثماني الذي عانته جميع الأمم في الدولة العثمانية ، وإنما حاولوا أن يؤلفوا الجماعات والأحزاب للدفاع عن الحقوق الأرمنية ، وبالمقابل كانت الدولة تتهم الأرمن دائماً وتحمّلهم تبعة هزائمها المتتالية على الجبهة الروسية ، ثمّ أخذت تدمّر وتحرق وتسجن وتنفي وتقتل وتقيم المجازر هنا وهناك وتستولي على الأرض الأرمنية ، وتحلّ سكّاناً مكانهم وتضايقهم ، كما فعلوا حين أسكنوا العشائر في منطقة صاصون ذات الأكثرية الأرمنية ، وكان ثمن هذا الكرم العثماني ضرب هؤلاء بأولئك في الولايات الأرمنية ، ثم جاء حزب « الاتحاد والترقي » الذي استغلّ الظروف خير استغلال ، فأعدم رجالات الأرمن ، ثم صنع المأساة في الأبناء والأرض كما مرّ معنا .

ولكنّ ردّ الفعل الأرمني كان قويّاً ، وتجلّى ـ رغم المصائب الفادحة ـ في المواجهات المستمرة في المراحل الثلاث :

أ ـ مرحلة الطاغية عبد الحميد .

ب ـ مرحلة الاتحاديين الطورانيين .

ج ـ مرحلة ما بعد الاتحاديين .

ففي المرحلة الأولى لم يصمت الشعب الأرمني على تهجير أبنائه من مناطقه التي عاش فيها زمناً طويلاً قبل مجيء العثمانيين من أواسط آسية ، وإنما حاول جاهداً أن يردّ الظلم عنه

وعن أرضه ، ولما كانت معاهدة برلين وذهبت أرمينية فدية لاختلاف الدول الأوروبية أسودّ الضياء في عيون الأرمن من جراء ذلك ، فحملوا على الحكومة العثمانية في صحف الغرب حملات شديدة ، وقاموا بمظاهرات صاخبة في عواصم الدول الأوروبية ، فكان ردّ فعل الدولة العثمانية على الأرمن أن امتلأ صدرهم حقداً وكراهية ، حتى إن سعيد باشا المشهور برزانته ـ كما يقول صاحب كتاب « ثورة العرب » ـ قال بهذه المناسبة « إن المسألة الأرمنية لا تحلّ إلا بإزالة الأرمن من الوجود » . ولما ابتدأت مضايقات العشائر للأرمن أخذ هؤلاء يعدّون العدّة ، فكانت ثورة « صاصون » عام 1894 التي أخذت تقضّ مضاجع السلطان عبد الحميد. وحوالي عام 1890 كانت عناصر من الهنتشاك تنظم هجمات لمقاومة متطلبات زعماء العشائر الذين عاملوا الشعب الأرمني معاملة قاسية ، ثم انفجرت الاضطرابات في الجبال الأرمنية ، وأخذت الثورة تنتقل من بيت إلى بيت . فمن طرابزون إلى زيتون ومن أضنه إلى ديار بكر أخذ الرجل الأرمني يستعدّ للقتال .

واستطاع أرمن صاصون في عام 1894 ـ بعد أن ألقي القبض على زعماء الهنتشاك ، في صيف ذلك العام ـ أن ينجحوا في دحر الخيّالة الحميدية والعشائر الموالية معاً ، واستبسلوا في الدفاع عن أنفهسم ، وبرهنوا للعالم أنهم أصحاب حقّ وأنهم قادرون على حمل السلاح ، ولكنّ السلطان عبد الحميد أمر الرعاع بأن يبدؤوا بالمذبحة على الهوية ، فبينما كان الثوار الأرمن في الجبال قام رجال« الخيّالة الحميدية » ورجال العشائر بقتل أيّ مواطن أرمني أعزل شيخاً كان أم امرأة أم طفلاً .

وفي أيلول عام 1895قام أرمن العاصمة بتظاهرة أسفرت عن اشتباكات دموية أمام السفارات الأجنبية ، ثم قامت مذابح هذا العام ، وفي آخر آب 1896 قامت مجموعة من فدائيي حزب طاشناقستيون بهجومهم على المصرف العثماني في استانبول ، فاقتحم عشرون فدائيّاً مسلحاً بالقنابل أبنية المصرف العثماني في وضح النهار ، وتمكّنوا من السيطرة عليها ، ولكنّ السلطة العثمانية كعادتها اعتبرت كلّ أرمني مجرماً ، فهاجمت المواطنين في كلّ مكان من العاصمة ، ولكنّ الفدائيين الأرمن قاوموا الجنود ورجال الشرطة ، ولم تستطع السلطة العثمانية دحرهم إلا بالمفاوضات التي تدخّلت فيها السفارات الأجنبية ، وقد حققت هذه العملية كثيراً من أهدافها ، على الرغم من سبعة آلاف شهيد أرمني ، فقد برهن هؤلاء

للعالم أجمع بعدالة قضيتهم ، كما أن الدبلوماسيين والسيّاح شاهدوا بأم أعينهم الدماء الأرمنية تسيل في الشوارع بلا ذنب ، وشاهدوا الضباط الأنيقين والحرس السلطاني يدوسون بأرجلهم جثث الضحايا الأرمن .

واهتزّ العالم الغربي لما جرى في العاصمة العثمانية ، ووجّهت إلى السلطان برقية مكتوبة باللغة الفرنسية باسم الدول الموقعة على معاهدة برلين تنذر وتحذر السلطان بأن المذابح يجب أن تتوقف فوراً وإذا استمرت هذه الحال ، فسيتعرض السلطان وعرشه وسلالته للخطر ، وهذا ما أرهب عبد الحميد وأقضّ مضجعه ، ورضخ للأمر مرتبعاً ، فأصدر أمره : « ممنوع القتل » .

و لم يقف الأرمن في مرحلة المذابح العامة وعمليات الإبادة والتهجير مكتوفي الأيّدي ، وإنّما أخذوا يقاومون عمليات الإبادة في الداخل والخارج ، وقد رفض الاتحاد الثوري الأرمني (أيّ حزب طاشناقستيون) ، أثناء المؤتمر الثامن الذي عقد في أرضروم في آب 1914 ، عروض جمعية (الاتحاد والترقي) التي طلبت منهم القيام بأعمال شغب بين أرمن روسيا القيصرية ، فهؤلاء الأرمن هم أهلهم وبنو جنسهم وإن كانوا يقيمون في دولة أخرى .

ولما حاول جاويد الوالي السابق لمدينة وان الأرمنية أن يهجّر أرمن « زيتون » وجوارها قاوم الأرمن في هذه المنطقة أوامر المحافظ جاويد ، فانتظموا جماعات للدفاع عن وجودهم في بلادهم ، واستطاع هؤلاء أن ينقذوا المدينة من الإبادة .

واستطاع الأرمن في المرحلة الكمالية وبعد الحرب العالمية الأولى أن ينتزعوا بنضالهم اعتراف الدول في معاهدة سيفر (10 آب 1920) بدولة أرمينية ، وقاومت هذه الدولة الفتية بقيادة اشتراكيي الاتحاد الثوري الأرمني « الطاشناق » قوات مصطفى كمال وقوات روسيا البلشفية .

و لم يتوقف النضال الأرمني في المنفى ، فقد قامت الحركة الأرمنية السرية بملاحقة مجرمي الحرب الطورانيين ، وثأرت للأرمن والعرب معاً ، فاستطاع أعضاء « كوماندوس العدالة والثأر » أن يلاحقوا الطغاة إلى كلّ مكان ، فاستطاع البطلان أرشاوير شيراكيان وآرام يركانيان أن يقتلا بهاء الدين شاكر المنفّذ الرئيسي للمذابح الأرمنية في حزب الاتحاد والترقي وجمال عزمي في 7 نيسان 1922 ، واستطاع الأبطال بدروس دير بوغوصيان

وأرداشيس كيفوركيان وستيبان زاغيكيان أن يقتلوا الطاغية جمال باشا السفاح في مدينة تفليس عاصمة جورجية السوفيتية في 21 تموز 1922 ، واستطاع قبل ذلك صوغومون تهلريان أحد أعضاء « كوماندوس العدالة والثأر » أن يقتل الرأس المدبّر للمذابح الأرمنية طلعت باشا وزير الداخلية سابقاً في برلين في 15 آذار 1921 ، كما قُتل سعيد حليم باشا رئيس الوزراء في روما في 6 كانون الأول عام 1921 ، وقُتل أنور باشا في بلجوان قرب عاصمة طاجكستان في 4 آب 1922 .

3 ـ نضال العرب والأرمن معا ضد الأتراك :

يحتاج كلّ مشروع توسعي إلى نظرية عنصرية ، وهي تقوم أول ما تقوم على القتل والذبح وتدمير الحضارات التي صنعتها الشعوب الأخرى المستهدفة في إنسانها وتاريخها ، وذلك لأن بقاء هذه الشعوب وبقاء معالمها وما يدلّ على وجودها في التاريخ يعني بقاء أثرها ، وهذا ما يدعوها في يوم من الأيّام إلى أن تطالب بحقوقها بوساطة العدل أو القوة أو إحدى الطرق التي تراها مناسبة ، والطورانية إحدى أهم ثلاث نزعات عنصرية في التاريخ الإنساني (الصهيونية ـ الطورانية ـ النازية) .

واستهدفت الطورانية أمماً وحضارات أرقى منها ، بل هي استهدفت أرض الحضارات الإنسانية القديمة (الإغريق ـ العرب ـ الأرمن) ، ولذلك كان لا بدّ من أن تنهج هذا النهج العنصري لتضمن بقاءها ، ولتتوسّع على حساب هذه الحضارات .

وإذا تساءلنا عن اللقاء النضالي المشترك بين الأمتين العربيّة والأرمنية ضد الأتراك الطورانيين فإن ذلك يبيّن لنا عدّة أسباب دعت العرب إلى أن يكونوا إلى جانب الأرمن ، ودعت الأرمن ، في الوقت ذاته ، إلى أن يكونوا إلى جانب العرب .

أ ـ دينيّاً : إن الإسلام الذي يضم العرب والترك معاً بريء كلّ البراءة من العنصرية ، وهو دين قام على التسامح والمحبّة والمساواة ، والطورانية مشروع عنصري خالص ، وهو لا يكترث بالإسلام بمقدار ما يكترث بتحقيق نزعاته التوسعية ، وهي إن تعارضت مع مبادئ الإسلام ضحّى بها ، وهذا ما كان على الساحة التاريخية ، فقد تيقّن العرب أن الإسلام في واد والطورانية في واد آخر ، والعرب أهل الإسلام وحماته وحرّاسه ، فلما

وجدوا الخروج على مبادئ دينهم الحنيف وقفوا إلى جانب الحق ، وخاصة أنهم من الأمم المستهدفة ، وأن دينهم مستهدف هو الآخر من أبناء جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو .

ب ـ سياسيّاً : إن الطورانيين كانوا دائماً إلى جانب أعداء العرب الصهاينة ، ومن المؤكّد أنّ زعماء العرب أدركوا وتيقّنوا أن الطورانيين صنيعة الصهاينة الذين يخطّطون لابتلاع جزء من الأرض العربيّة ، ولذلك وصفهم الشريف حسين في منشوره التاريخي بالكفار والعصابة ، لأن المذهب الطوراني كان اختراعاً صهيونياً ، والأداة التي تنفذه هي جمعية « الاتحاد والترقي » ، وهي صنيعة الصهيونية ويهود الدونمة في سلانيك وإزمير وسواهما .

ج ـ قوميّاً : كان الطورانيون يحاولون بشتّى السبل النيل من القومية العربيّة ومن العرب ، وما جرى للغة العربيّة والإسلام والشخصيات العربيّة وأحرار العرب دليل على ذلك من جهة ، ثمّ تكرّست هذه النزعة العدوانية بالاستيلاء على لواء اسكندرونة العربي السوري 1939 ، وهو جزء لا يتجزّأ من الوطن العربي ، وقد حاول الأتراك بطرق مختلفة القضاء على عروبة اللواء ، بتكثيف الهجرة التركية إليه ، ومنع اللغة العربيّة في المدارس، وتفريغ اللواء من سكانه .

وقد تجلّى هذا النضال المشترك بين الشعبين ضد الأتراك في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس يوم 18 حزيران عام 1913 ، وقد صادق المؤتمر وأظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية .

وتجلّى هذا التعاون بين الأمتين في منشور الشريف حسين الذي دعا فيه إلى الحفاظ على الأرمن ، وذلك في الرسالة الصادرة عنه سنة 1917 ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الأمراء الأجلاء الأماجد الأمير فيصل والأمير عبد العزيز الجربا ، السلام عليكم ورحمه الله وبركاته . أما بعد صدرت الأحرف من أم القرى بتاريخ 18 رجب 1336 هـ لحمد الله الذي لا إله إلا هو إليكم ثم نصلّي ونسلّم على نبيه وآله وصحبه وسلم . ونخبركم بأنا والثناء له تبارك وتعالى بصحة

وعافية ونعمة من فضله ضافية وافية أسبل الله علينـا وإيـاكم سـوابغ نعمـه . وإن المرغوب بتحريره المحافظة على كلّ مـن تخلّـف بـأطرافكم وجهـاتكم مـن الطائفة اليعقوبية الأرمنيـة تسـاعدوهم علـى كـلّ أمورهـم وتحـافظون عليهـم كما تحافظون على أنفسكم وأموالكم وأبنـائكم وتسهّلون كـلّ مـا يحتـاجون إليه في ظعنهم وإقامتهم فإنهم أهل ذمة المسلمين والـذي قـال فيهـم صلـوات الله عليه وسلامه من أخذ عليهم عقال بعير كنت خصمه يـوم القيامـة وهـذا من أهمّ ما تكلّفكم به وننتظره مـن شـيمكم وهممكـم والله يتولانـا وإيـاكم بتوفيقه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

إن هذه الرسالة هي خير ما نختم به هذا الفصل ، فهي تـدلّ دلالـة واضحـة علـى محافظـة العرب على سنّة النبي العربي (ص) وموقفه وموقف الحسين بن علـي مـن أهـل الذمـة عامـة والأرمن خاصة ، كما تدلّ من جهة خفية على مناهضـة العـرب للعثمـانيين فكريّـاً وأخلاقيّـاً ودينيّاً .

الفصل الخامس

قضايا النضال

القضايا التي ناضل من أجلها الشعبان العربي والأرمني ضد الدولة العثمانية أولاً ، وضد الدولة الطورانية ممثّلة بأعضاء جمعية « الاتحاد والترقي » وبثالوثها طلعت وأنور وجمال ثانياً ، واستمرت إلى اليوم ، تكاد تكون متشابهة أو هي واحدة في نشأتها وتطورها ، لأن المستعمر واحد ، والاستبداد الذي حلّ بالشعبين يكاد يكون واحداً لولا بعض الظروف التي تتحكم بطبيعة هذه الأرض أو تلك ، وبموقعها وتوزيع السكان في البلاد ، ثم إنّ تطور هذه القضايا يكاد هو الآخر يكون واحداً تبعاً للوعي القومي الذي تشكّل عند الأمتين في فترة واحدة تقريباً .

وإذا كانت مطاليب العرب والأرمن في العصر الحميدي تتلخّص في الحكم اللامركزي فإنها تطورت بعد ذلك ، وخاصة في أيّام الطورانيين إلى الانفصال التام عن دولة لا تريد سوى إذلال رعاياها من الأمم الأخرى ، وقد توضّح لدى القائمين على الأمر من الجانبين العربي والأرمني أن اللقاء بين الشعبين من جهة والدولة التركية من جهة مستحيل ، ولذلك سنتوقف عند قضايا النضال عند الشعبين في العهد الحميدي والعهد الطوراني والعهد الذي يليه .

1 ـ قضايا النضال العربي والأرمني في العهد الحميدي :

لم تكن المطالب العربيّة والأرمنيّة فيما قبل العهد الحميدي كبيرة ، وخاصة أن التخلّف كان عاماً في أرجاء الدولة العثمانية ، وأن الشعب العربي كان ينظر إليه على أنه صاحب الرسالة الإسلامية ، وكان الشعب العربي ينظر إلى الدولة العثمانية بدوره على أنها حامية الإسلام والمسلمين ووريثة الخلافة العربيّة ، وأن الأحداث الخارجية والداخلية أسهمت هي

الأخرى في تعميق هذه الفكرة بعد أن تعرّضت الولايات العربيّة في شمالي أفريقية وفي جنوبي الجزيرة العربيّة وشرقها إلى الغزو الأوروبي أو المعاهدات الثنائية الجائرة (الجزائر ــ تونس ــ المغرب ـ مصر ـ عدن ـ مسقط ..) ، وكان الخلاص في رأي العرب من الطامعين لا يتمّ إلا بوساطة شدّ أزر هذه الدولة والأخذ بيدها للخلاص من الاستعمار الأوروبي .

و لم يكن الشعب الأرمني أكثر ابتعاداً عن العثمانيين من العرب ، صحيح أن الدين لا يجمع الشعبين ، ولكنّ الوثائق التاريخية تؤكّد أن العثمانيين كانوا قد منحوا هذا الشعب بعض الحريات الدينية في تصرّفات رجال الدين وإقامة الشعائر الدينية وتدبير شؤون الرعايا ، وأن هذه الدولة قد استخدمت الأرمن في كثير من أمورها ، وخاصة أنهم شعب حضاري يعمل وينتج ، حتى أنهم صاروا أرباب القلم وسط هذه الدولة ، واشتهر منهم أرباب في الصناعة والتجارة والبناء ، وكانوا صادقين في معاملاتهم وسلوكهم وأقوالهم .

ولكنّ الحال تحوّلت في أيّام السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان هذا الرجل ذا شخصية مريضة ، شكّاكاً ، كما مرّ معنا ــ قابلاً لأن يثور ويقتل في أيّ وقت ، ويظنّ أن سلطته مستمدة من الله تعالى ، وكان سيّء الظن حتى في الأشخاص المقرّبين منه كأفراد حاشيته وخدمه وجواريه وأفراد أسرته ، ويعدّ أيّ نصيحة ـ مهما تكن ـ تدخّلاً في شؤونه الخاصة ، ولذلك نشر الهول والاستبداد في عرض البلاط وطولها ، ولاقى منه الشعبان العربي والأرمني الأمرّين ، ومن هنا فإن المطاليب العربيّة والأرمنية ظهرت إلى الوجود في زمنه في وقت واحد واضحة جلية ، ولكنّها لا تتعدّى عند الشعبين المطالبة بالحكم اللامركزي وما يتعلق به .

إنّ قضايا النضال العربيّ لم تكن واحدة في عهد هذا السلطان في الولايات العربيّة ، نتيجة لامتداد رقعة الوطن العربي من جهة واختلاف ظروفه من جهة ، فهي تختلف بين الولايات التي كان يحكمها الأوروبيون فعليّاً عن الولايات التي كان يحكمها السلطان عبد الحميد وولاته حكماً مباشراً ، فقد كانت النزعة العثمانية الإسلامية (الولاء للدولة العثمانية) قويّة في البلاد العربيّة الواقعة في شمالي أفريقية ، باعتبار أن العرب هناك كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها حامية الإسلام والمسلمين ، وأنها المخلّص الوحيد من قبضة المستعمرين الأوروبيين ، ونرى هذا التمسك واضحاً في كثير من أعمال المفكرين

والأدباء من أمثال جمال الدين الأفغاني وأتباعه من أمثال الشيخ محمد عبده والأديب الأرمني الأصل أديب إسحق والشاعرين أحمد محرم وأحمد شوقي وسواهم .

ولكنّ الأمر كان مختلفاً كلّ الإختلاف في بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربيّة إذ كان الظلم الحميدي مباشراً والاستبداد ملموساً ، فكان للتكتلات والجمعيات والأحزاب أكبر الأثر في إثارة الوعي العربي العلمي والأدبي والسياسي والوطني ، ومن أمثالها جمعية « الآداب والعلوم » التي أسّسها بعض الأمريكان في بيروت سنة 1847 وكان من أعضائها الكثير من المتنورين العرب ، و« الجمعية السورية » التي أسسّها اليسوعيون عام 1868 ، ويلخص الباحث القومي محمد عزت دروزة في كتابه « نشأة الحركة العربيّة الحديثة » ـ ص 95 ـ هذه القضايا أو المطالب في أربعة بنود ، هي :

1 ـ منح سورية الاستقلال الذاتي متحدة مع جبل لبنان .

2 ـ الاعتراف باللغة العربيّة لغة رسمية في البلاد العربيّة .

3 ـ منع الرقابة والقيود الأخرى التي تحدّ من حرية التعبير ونشر العلم .

4 ـ استخدام المجنّدين من أهل البلاد في المهام الداخلية فيها فقط .

ويمكننا إضافة بند خامس أورده محمد عزت دروزة نقلاً عن أحد المنشورات التي كانت الجمعيات تركّز عليها ، وهو المطالبة بالمساواة في العمل الوظيفي ، ويتلخّص في أن يكون للعرب دور فعّال في إدارة شؤون الدولة وفي وظائفها الكبيرة وقيادة الجيوش ، وممّا جاء في المنشور المذكور للتحريض على المطالبة بالمساواة والعمل لها القول التالي : « أين أنتم وأين هم ، من منكم اليوم أمير ، ومن منكم اليوم وزير ..الخ » .

أما البند الأول فهو يتجلّى بالمطالبة في الحكم اللامركزي الذي كانت تطالب به بعض الجمعيات في بلاد الشام ، وكانت الولايات العربيّة في شمالي أفريقية تنظر إلى هذا المطلب على أنه تدمير لبنية الدولة العثمانية في هذه الفترة من حكم السلطان عبد الحميد ،ولكنّ الجمعيات في بلاد الشام ، وعلى رأسها جمعيتا « الآداب والعلوم » و « الجمعية السورية » ، ذهبت في هذا المطلب إلى حدّ متقدّم ، وخاصة في المنشورات التي كانت توزعها

سرّاً ، و لم يكن الهدف فيها الانفصال عن الدولة العثمانية ، ولكنّ الهدف إصلاحي خـالص ، لأن فكرة الانفصال لم تكن بعد قد تبلورت في العقول المستنيرة ، بسبب الجهل الذي كان لا يزال يخيّم على النفوس ، علـى الرغـم مـن أن الدولـة العثمانيـة أخـذت تكيـد لهـذه الولايـة ، فتجمع الأموال منها وترسلها إلى تركيا ، فـافتقرت البـلاد ، وسـاد الغـلاء والجشـع والجـوع فيها.

أما القضية الثانية في هذا العهد فهـي الاعـتراف باللغـة العربيّة لغـة رسميـة إلى جـانب التركية في البلاد العربيّة ، وقد بدأت اللغة العربيّة تلاقي كثـيراً مـن العنـت والاضطهـاد علـى الرغم من أنها لغة الدين الإسلامي ولغة القرآن الكريم وحارسـته ، ولكـنّ العثمـانيين أخـذوا يضيّقون عليها في الدواوين ، وصار المواطن العربي بحاجة إلى أن يتعلـم اللغـة التركيـة ليعمـل ويتوظف ويعيش ، وهذا ما أصاب اللغة الفصحى بـالوهن وانتشـار العاميـة العربيّـة والتركيـة فيها ، فقامت ثلّة من أرباب القلم والفكر في لبنان بإعادة إحياء هذه اللغة من أمثـال نـاصيف اليازجي وولده إبراهيم ، وأحمـد فـارس الشـدياق والمعلـم بطـرس البسـتاني ، وبـدأ الاهتمـام بهذه اللغـة يشـغل حيّزاً مهمـاً مـن أعمـال هـؤلاء الـرواد وتـابعيهم ، ولاقـت هـذه الفكـرة استحساناً في صدور المسلمين والمسيحيين معاً ، إضافة إلى حركة إحيـاء الـتراث العربـي الـتي هي في الوقت ذاته ، إحياء للشخصية القوميـة وتذكيرهـا بأمجادهـا الغـابرة ، وبلغتهـا في أيّـام السؤدد والعزّ والسلطان .

أما القضية الثالثة فهي القضية الأهمّ ، وهي منع الرقابة والقيود الأخرى التي تحـدّ مـن حرية التعبير ونشر العلـم ، وقـد أخـذت بـلاد الشـام تنهـض نهضـة سريعة بفضـل المـدارس التبشيرية والوطنية التي أنشئت هنا وهناك ، ثـم دخلـت الطباعـة والصحافـة ، وابتـدأت هـذه النهضة تقضّ مضجع السلطان عبد الحميد الذي كان يتدخّل بنفسه في كلّ شـاردة وواردة ، حتى إن بعـض المؤرخـين وصفـه وكأنـه رئيـس تحريـر لا تمـرّ مقالـة أو قصيـدة إلا إذا قرأهـا واطمأنّ إلى ما فيها ، وأكثر ما كان يخشاه هو انتشار العلـم والوعـي وحريـة التعبـير ، فـأخذ هو وولاته ينشرون بين عامة الشـعب وغوغائـه أن العلـم يقـود إلى الكفـر ، ولذلـك حـارب

السلطان عبد الحميد بشدّة ما كان من نهضة في هذه البلاد ، فأخذ هو وولاته يغلقون الصحف ويلاحقون كلّ من ينادي بالحرية ، أو كلّ من تظهر من أقواله وكتاباته ونشاطاته مناوئة للحكم الاستبدادي ، فأغلق المسرح الذي أنشأه ورعاه أبو خليل القباني في دمشق ، ولوحق الرجل وكفّر ، وأغلقت الصحف في لبنان ، وهاجر بها أصحابها إلى مصر أو باريس أو لندن أو غيرها ، وحاول جواسيس السلطان أن يقلتوا أو يلاحقوا كلّ من سوّلت له نفسه أن يتنفّس تنفّس الصعداء أو يتنسّم نسيم الحرية ، ولذلك لم يستطع إبراهيم اليازجي أن ينسب قصيدته البائية إلى نفسه ، كما حاول جواسيس السلطان أن يقتلوا تلميذه الشاب الشاعر خليل مطران في عام 1890 بإطلاق ثلاث رصاصات على فراشه ليلاً ، ـ ففضّل ذووه أن يغادر البلاد إلى فرنسا ، وهكذا تفرّق المفكرون الأحرار والأدباء بين مصر وباريس ولندن وغيرها ، وهاجر أهل البلاد وشبابها إلى الأمريكيتين ، حتى خلت كثير من قرى الجبل اللبناني من شبانها في أثناء حكم السلطان الجائر عبد الحميد ، بسبب الاستبداد والظلم والفقر وأسلوب التفرقة الذي انتهجه السلطان وولاته ، حتى قال الخوري باسيليوس في « تاريخ الولايات المتحدة والمهاجرة السورية » :

« وما سبب تلك الشحناء بين أولاد الوطن الواحد سوى التعصّب الذميم وعمال الحكومة التركية الذين تمشّوا على سياسة « فرّق تملك » فكانوا يقودون فئة على أخرى خوفاً من اجتماع كلمة القوم ونهوضهم للمطالبة بحقوقهم المهضومة » .

وقد عبّر عن أسباب هذه الهجرة كثير من شعراء العرب في المهجر ، وأخذوا يوازنون بين حياة الحرية التي ينعم بها الناس هناك وبين حالة الجهل والتخلّف والتفرقة والظلم والاستبداد والعبودية في بلادهم ، حتى إن الكثير منهم ـ وكان هدفهم جمع المال من هجرتهم ـ رفضوا العودة إلى الوطن حين تلمّسوا أنوار الحرية والحياة الكريمة في أمريكة ، وفضّلوا أن يعيشوا فقراء أحراراً في بلاد الاغتراب على أن يعودوا إلى الوطن الذي يخيّم عليه الاستبداد ، فقال الشاعر مسعود سماحة :

سأترك أرض الجدود ففيها ... حياة الجبان وموت الجري

تقيّد أقلام أحرارها ... وتطلق أيدي ذوي الميسر
سأضرب في الأرض لا خائفاً ... من البرّ أو لجج الأبحر
وأنزل في بلد دونه ... سموّ المجرّة والمشتري
يدبّ الهناء على تربه ... ويجري الرخاء مع الأنهر
سلام على أرض كولمبس ... سلام على ربعها الأزهر

ويعتذر أبو ماضي لوطنه لبنان عن هجره له بعد أن حلّق في سماء الحرية ورفت عليه نسماتها :

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم ... ركبوا إلى العلياء كلّ سفين
لم يهجروك ملالة ... لكنّهم ... خُلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
لما ولدتهم نسوراً حلّقوا ... لا يقنعون من العلا بالدون
والنسر لا يرضى السجون وإن تكن ... ذهباً فكيف محابس من طين

أما القضية الرابعة فهي استخدام المجنّدين العرب في الحروب العثمانية في البلقان وغيرها من بلاد الأوروبيين التي كانت تحكمها الدولة العثمانية ، فكان هؤلاء المجنّدون يحاربون من أجل قضايا لا تمتّ إليهم بصلة ، ولذلك طلبت هذه الجمعيات أن يستخدم هؤلاء المجنّدون فيما يخصّ بلادهم من قضايا والدفاع عنها ضد الغزاة الأوروبيين الذين أخذوا يهددون الولايات العربيّة ولاية بعد أخرى ومدينة فمدينة ، كما حدث في شمالي أفريقية ، وأخذ العرب يدركون أنهم مستهدفون من قبل الغزاة .

أما القضية الأخيرة فهي المساواة في وظائف الدولة ، وخاصة في الولايات العربيّة ، وأهمّها الوظائف العالية ، كضرورة أن يكون الوالي عربيّاً ، وضرورة أن يمثّل هذا الشعب الكبير عدد من النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني ، وأن يكون للعرب وزراء في الدول ونصيب آخر من الوظائف الحكومية ذات المراكز الحسّاسة .

ولا تختلف القضايا الأرمنية في هذه الفترة عن القضايا العربيّة ، فهي واحدة تقريباً ، فقد بدأ ظهور حركة وطنية بين اللجان الثورية الأرمنية ، ومن زعمائها حينذاك مكرديج

بورتوكاليان وميناس تشيراز عضو الوفد الأرمني العثماني إلى مؤتمر برلين الدولي ، وتأسّست الجمعيات الثورية في وان ، وكانت هذه الجمعيات تتألف من ثلاث طبقات من الأعضاء فطبقة الزعماء ترسم الخطط وتموّلها وتصدر الأوامر ، وطبقة المثقفين الشبان التي تنشر الدعايات وتجنّد الأنصار وتجبي الأموال ، وطبقة عامة الشعب التي يناط بها تنفيذ الأوامر .

ونشأت الأحزاب الثورية الأرمنية في هذه الفترة ، وهي حزب الأرميناكان ، أيّ الحزب الأرمني الذي تأسّس في وان عام 1885 ، وحزب الهنتشاك أيّ الناقوس أو المنبّه الذي تأسّس في جنيف عام 1887 ، وحزب الطاشناقستيون أيّ الاتحاد الثوري الأرمني الذي تأسّس في تفليس بجورجيا عام 1890 ، وكان من قبل أن ظهرت « الجمعية المتحدة » التي أسّسها عام 1864 المصلح الأرمني الكبير مكرديج بشكطاشيليان .

إن المطالب الأرمنية في هذه الفترة ـــ كما قلنا ـ هي الحكم اللامركزي في المقاطعات الأرمنية ، وهذا ما يلخّصه فائز الغصين في كتابه « المذابح في أرمينيا » بقوله :(33)

« للأرمن جمعيات علمية وسياسية وأهمها جمعيتا « الطاشناقستيون » و « الهنجاك » وكان برنامج هاتين الجمعيتين اعمال كلّ تأثير واتخاذ كلّ واسطة للوصول للغاية لا يرجع عنها الأرمن . وهذه الغاية هي الاستقلال الإداري تحت مراقبة دول أوربة المعظمة . وقد سألت كثيراً من الأرمن الذين قابلتهم فلم أجد رجلاً قال لي إنه يريد الاستقلال السياسي ، لأن الأرمن أقل من الأكراد في أكثر الولايات التي يسكنونها ، فلو استقلّوا لكان استفاد الأكراد أكثر منهم (...) ولذلك فهم يرجحون البقاء تحت الحكم التركي على شرط أن تكون إدارتهم تحت مراقبة أوربة المعظمة لأنهم لم يأمنوا مواعيد الأتراك الذين يأخذون اليوم ما أعطوه بالأمس .. ولذلك فإنّ هاتين الجمعيتين تسعيان سعياً حثيثاً لنشر فكرتها بين الأرمن ولاستحصال ضالتها المنشودة بأيّ واسطة كانت » .

تتضمّن هذه المطاليب القضايا الأرمنية في العهد الحميدي ، وهي كذلك يمكننا أن نصنّفها في البنود الخمسة السابقة .

أما البند الأول فهو الاستقلال الإداري أو الذاتي، وهو أن يحكم الأرمن أنفسهم بأنفسهم في ولاياتهم ضمن الدولة العثمانية ، وهذا يعني أن يحتفظوا بقسم كبير من أموالهم التي يدفعونها إلى الدولة لإصلاح أحوال مناطقهم التي كانت تعاني هي الأخرى الجهل والتخلّف نتيجة للظلم والاستبداد .

والمطلب الأرمني الثاني هو أن تكون اللغة الأرمنية لغة رسمية في المناطق التي أكثريتها من الشعب الأرمني ، وأن يُترك الأمر فيها لأصحاب الأمر في قضايا التعليم والثقافة ، فمن المعروف أن الشعب الأرمني ذو حضارة عريقة ، لها وجودها في التاريخ سياسيّاً ودينيّاً وثقافيّاً ، والعودة إلى هذه الحضارة لا يتعزّز إلا بهذه اللغة التي صنعت في يوم من الأيّام تلك الحضارة وذلك التاريخ ، وعلينا أن نذكر هنا بداية النهضة الفكرية الأرمنية في مطلع القرن الثامن عشر ، وأن نذكر روادها الكثر من المفكرين والباحثين والصحفيين والمسرحيين الذين حاولوا أن يعيدوا إلى هذه اللغة ما كان لها من ازدهار آيّام المملكة الأرمنية المستقلة .

ولا يختلف المطلب الثالث في أيّ ولاية من ولايات الدولة العثمانية عن غيرها ، فالنهضة الأرمنية الحديثة متقاربة مع النهضة العربيّة ، فالقرن التاسع عشر هو عصر نهضة القوميات والاعتزاز بماضيها ، ولذلك فإن حرية التعبير هي المطلب الأساسي سواء أكان أرمنيّاً أم كان عربيّاً أم كان غير ذلك ، فللأرمن صحف ودساتير سياسيّة ودينيّة لا تعيش إلا بحرية التعبير ونشر العلم والوعي والمعرفة ، وهذا ما كان يخشاه السلطان عبد الحميد الذي حاول أن يكمّ الأفواه ، ويلاحق الأحرار في الولايات العثمانية حتى الترك منهم ، وما جرى لمدحت باشا دليل على ما أصاب الحالة الفكرية والإصلاحية حتى بين الشعب التركي نفسه .

أما البند الرابع المتعلق باستخدام المجنّدين الأرمن في القضايا التي تخص المناطق الأرمنية فإن ممّا لا شك فيه أن مبدأ المساواة في المعاملة هو مطلب إنساني صرف ، وهو مطلب عام

أينما حلّ المرء وفي أيّ بلد كان ، وهذا المطلب الذي نادت به الجمعيات والأحزاب الأرمنية ، وخاصة بعد أن أخذ السلطان عبد الحميد يهجّر الأرمن من ديارهم في منطقة صاصون ويحلّ محلّهم بعض العشائر لضرب هؤلاء بأولئك .

وكان الأرمن قد وصلوا إلى مراكز حسّاسة في الأعمال الإدارية وأعمال القلم خاصة إضافة إلى الصناعة والتجارة ، ولكنّ الأرمن كانوا يطمحون إلى الحكم الذاتي حيث يكون الولاة في مقاطعاتهم وقادة الجند أرمن ، وهذا يعني أن الدولة العثمانية كانت تستخدم الجنود الأرمن كالجنود العرب في قضاياها الخاصة التي لا تهمّ هؤلاء أو أولئك من قريب أو بعيد ، كالحرب في البلقان وسواها ، في حين ظلّت بلادهم بعيدة عن الإصلاح والحكم الإداري الذاتي ، لأن الولاة كانوا من غير الأرمن .

2 ـ قضايا النضال العربي والأرمني في العهد الطوراني :

أخذ الوعي العربي والأرمني بتزايد يوماً إثر يوم من جراء ظروف داخلية وظروف خارجية ، أهمّها ازدياد نسبة المتعلّمين ، وانتشار المدارس ، ومعرفة ما لدى الآخرين من حريّات ، وانتشار مبادئ الثورة الفرنسية في جميع أصقاع المعمورة ، ثم كان للصدام بين العرب والأرمن مع سلطات عبد الحميد دور آخر في تفتّح الوعي القومي عند الأمتين .

ولما اشترك العرب والأرمن مع الشعوب العثمانية الأخرى في الثورة على السلطان عبد الحميد كانوا يمنّون أنفهسم بأن تنعم الولايات العربيّة والأرمنيّة بالحكم الذاتي ، ولكنّ الطورانيين ـ كما رأينا سابقاً ـ قلبوا لهم ظهر المجنّ ، وبدؤوا بعمليات التتريك والتهجير وإبادة الشعب الأرمني ، وهذا ما جعل الشعبين يدركان معاً أن الطورانيين يضمرون لهم النوايا الخبيثة ، ويسعون إلى إبادتهم وتذويب شخصياتهم ، ولذلك فإن المطاليب العربيّة والأرمنيّة تحوّلت من الحكم اللامركزي إلى الانفصال عن الدول الطورانية ، وخاصة في بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربيّة .

إن دخول الدولة التركية الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان جعلتها تستغلّ هذه الفرصة للخلاص من الشعبين العربي والأرمني ، فانحصرت القضايا النضالية العربيّة في الانفصال عن الدولة التركية ، وانحصرت القضايا النضالية الأرمنية ـ وخاصة بعد بدء المجازر ـ

في الدفاع عن النفس والوجود الأرمني .

وقد توترت وتحولت القضايا النضالية العربيّة كرد فعل لما كان يقوم به أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في حكم البلاد حكماً مركزيّاً متشدداً من المطالبة بالحكم اللامركزي إلى المطالبة بالانفصال عن العثمانيين وقيام مملكة عربيّة في البلاد العربيّة في آسيا ، وانتشرت الأحزاب والجمعيات السياسية ، وتوزعت المنشورات التي تدعو إلى ذلك ، وساعدت الجالية السورية في بلدان العالم على هذا الطلب ، وخاصة في مؤتمر باريس ، في الوقت الذي ظلّت فيه الولايات العربيّة في شمالي أفريقية ، وفي مصر خاصة ، تدعو إلى الحكم اللامركزي ومن الجمعيات السريّة التي كانت تدعو إلى استقلال البلاد العربيّة « الجمعية القحطانية » التي تأسست في أواخر عام 1909 ، و « الجمعية العربيّة الفتاة » التي تأسست في باريس عام 1911 على يد سبعة من العرب كانوا يتابعون دراستهم في فرنسا ، وهم : رستم حيدر وعوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي ورفيق التميمي وتوفيق السويدي ، ثم انضمّ إليهم شبّان آخرون ، وقد قامت هذه الجمعية بدور حاسم في تاريخ الحركة القومية ، وكانت أحياناً تتحاشى ذكر الاستقلال في برنامج عملها ، ولكنّها كانت تدعو سرّاً ، وقد انتقلت هذه الجمعية في عام 1913 إلى بيروت ، ثم إلى دمشق ، وقد استطاع جمال باشا السفاح بوساطة الديوان الحربي الذي أقامه أن يكشف الجمعيات السرّية وأسماء المشتركين فيها باستثناء جمعية الفتاة وأعضائها بسبب السرّية التي أحاطت بها أعمالها .

إن هذا التحول في النظرة إلى الدولة التركية واضح في الولايات العربيّة كلّها ، فقد تحوّل ـ كما قلنا ـ التعلّق بالدولة العثمانية في البلاد التي كان يحكمها فعليّاً الأوروبيون من الولاء لهذه الدولة إلى المطالبة بالحكم اللامركزي ، على أساس أنها تظل المنقذ من السيطرة الأوروبية ، ولكنّ الأمر كان مختلفاً في الولايات التي كانت تئنّ تحت سيطرة الطورانيين التي رأى أحرارها أن الحلّ الوحيد هو الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، لأن المستنيرين أدركوا أن الطورانيين لا يقومون بأيّ إصلاح ، وأنهم يراوغون الشعب العربي للنيل منه ومن شخصيته ولغته ومعتقداته ، ولذلك كان الانفصال هو الحلّ الذي لا حلّ سواه .

أما الشعب الأرمني فقد كان مستهدفاً في هذه الآونة ، وأخذت المجازر تشغله عن تلك

القضايا الملحة ، لأنه كان مستهدفاً في وجوده ودمه ، وكان الطورانيون ـــ كما رأينا ـــ قد اقتلعوا هذا الشعب من ترابه ، وقتلوا مئات الألوف .

3 - قضايا النضال العربي والأرمني بعد مرحلة ا لطورانيين :

انفصلت الولايات العربيّة في هذه المرحلة عن الدولة التركية ، وخرجت جيوش هذه الدولة مهزومة في هذه الحرب ، كما خرج الألمان مهزومين من عدّة مناطق في العالم ، واتجهت قضايا النضال العربي إلى مستعمر آخر هو المستعمر الأوروبي الذي اقتسم الولايات العربيّة في آسيا حسب معاهدة سايكس - بيكو المعروفة إذ غدر بهم حلفاء الأمس مع أن هذه البلاد ما زالت تعاني وتراقب بحذر ما يصدر عن مستعمر الأمس الذي لا يزال يطمع في بلادنا أو في بعض بلادنا ، أو هو يريد أن ينتقم منا أو يتعاون مع عدونا الصهيوني .

أما القضية الأرمنية فقد خرجت من المنفى إلى الساحة الدولية وفي بقاع الأرض قاطبة ، وهي تتلخّص في ثلاث قضايا :

أ ـ الاعتراف بالمجزرة .

ب ـ التعويض عن الإبادة الجماعية العنصرية .

ج ـ استرجاع الأراضي القومية المغتصبة .

أ ـ الاعتراف بالمجزرة :

لم يعرف التاريخ مجزرة شبيهة بالمجزرة التي تعرّض لها الشعب الأرمني والتي دبّرها له العثمانيون أولاً والطورانيون ثانياً ، وقد تنوعت خسائر هذا الشعب وتعدّدت بشرياً وثقافياً وأراضي وآثاراً ، فقد قدّم صاحب كتاب « المشانق العربيّة والمجازر الأرمنية » إحصائية في الولايات التي تقع شرقي الأناضول تتضمن القتلى والمهجّرين ، في ولايات أرضروم وطرابزون وسيواس وخربوط وديار بكر ووان وبتليس ، فالقتلى في هذه الولايات بلغ 838,600 شخصاً ، وقدّم إحصائية تتضمن القتلى والمهجّرين في الولايات التي تقع غرب الأناضول ، في ولايات إزمير وبروصة وأنقرة ، ومجموع القتلى فيها 309,800

شخصاً ، وقدّم إحصائية تتضمن القتلى والمهجّرين في ولايات كيليكيا وشمال سورية في ولايات أضنة وحلب ، فالقتلى 95ر238 شخصاً ، وفي ولاية استانبول 000ر30 شخصاً إضافة على مقتل 000ر300 جندي أرمني ، أما الخسائر الثقافية فهي فادحة بين ما يزيد على 1700 أديب وفنان وموسيقي وطبيب ومدرّس وحقوقي ومهندس وممّثل ، وبلغت الأرض الأرمنية المحتلة 150 ألف كم2 وكانت الخسائر الأثرية والمادية لا توصف ولا تصدّق لهول الفادحة وعدم القدرة على تقدير الأرقام النهائية (**المشانق ص 248 - 254**) .

ومع هذه الأرقام الخيالية لمجزرة عامة شاملة لا تقبل أدنى شك في أن مدبريها نفّذوها بدقة متناهية وسابق تصميم، فإن الحكومة التركية اليوم ترفض تهمة إبادة الجنس الأرمني أمام الضمير العام العالمي ، وكأنّ هذا الضمير لم يسمع ولم ير ولم يقف بنفسه على أسباب هذه الجريمة وعلى نتائجها بشرياً وعلى الأرض تماماً ، كما ينكر الصهاينة الغرباء عن الوطن العربي ما فعلوه بالأرض والشعب الفلسطيني ، وكأنّ الضمير العالمي لم يدوّن ما فعله هؤلاء وأولئك .

إنّ الوثائق تثبت ضلوع الدولة التركية بقيادة جمعية الاتحاد والترقي في تدبير هذه المجزرة وتنفيذها ، وإن التسبب في مقتل مليون ونصف مليون إنسان هي في حكم المؤكد إبادة جماعية ، وهي جريمة بموجب القانون الدولي ، ومع ذلك فإن الدولة التركية ترفض اتهام الإبادة وتعتبر أنه ليس له أساس من الصحة ، وذلك ما ورد في نصّ قرار البرلمان الأوروبي في 18 حزيران عام 1987 ، ولكنّ هذا البرلمان أكّد أن هذه الحكومة ترفض الاعتراف بالمجازر لتحرم الشعب الأرمني من الحق في تاريخه .

والعجيب أنّ أتراك اليوم يتنكّرون لما فعله آباؤهم وأجدادهم بالأمس ، مع أنّ طلعت وأنور وجمال كانوا يتباهون بأنهم انتهوا من القضية الأرمنية ، وبأنهم فعلوا في ثلاثة أشهر ما لم يستطع أن يفعله عبد الحميد في سنين ، ثم لماذا نذهب بعيداً فهذا مصطفى كمال يدلي بشهادته في الجريمة النكراء قائلاً :

« لقد ارتكب مواطنونا الأتراك جرائم غير مسموعة سابقاً ، ولجؤوا إلى كلّ الطرق المبتكرة في الطغيان ، ونظّموا النفي والمجازر ، وصبّوا الوقود

على الأطفال وأحرقوهم ، واغتصبوا النساء والبنات أمام أعين أهلهنّ المربوطي الأيدي والأرجل ، وخطفوا الصبايا أمام أمهاتهنّ وآبائهنّ ، واستولوا على الأموال الشخصية والعقارات ، وساقوا الناس إلى بلاد ما بين النهرين ، وفي الطريق عاملوهم بشكل غير إنساني ، ووضعوا الألوف في زوارق وأغرقوها في البحر ... وضعوا الأرمن في أقسى الظروف غير المحتملة التي عرفها أيّ شعب آخر في تاريخه » .

ولذلك كلّه يصرّ الأرمن في العالم اليوم على أن تعترف الدولة التركية بأنها قامت بهذه المجازر المتتابعة لتدغمها بالوحشية واللاحضارة أمام الضمير العام العالمي كلّه .

ب ـ التعويض عن الإبادة الجماعية العنصرية :

وهذا المطلب منبثق من المطلب الأول ، فإذا اعترف الأتراك بهذه الجريمة فعليهم أن يعوضوا على الشعب الأرمني ممّا لحق به من غبن وظلم وتقتيل وتهجير ، فدماء الأرمن لا تزال بلا تعويض حتى اليوم ، وضحايا جريمة إبادة الجنس يستحقون تعويضاً قضائيّاً ، وينبغي أن يشمل هذا التعويض الخسائر البشريّة والخسائر الثقافيّة والخسائر الأثريّة والخسائر الماديّة ، كما ينبغي ألا ينظر إلى هذه الخسائر في زمنها ، ولكنّ ينظر إليها مشفوعة بما ترتّب عليها من نتائج وتعطيل حضاري لأمة كانت في أوج العطاء ثم تعرّضت للإبادة الشاملة ، فإذا اعترف القاتل بجريمته ، وتكفّل بالتعويض على المتضررين كان السلام بين الشعبين المتجاورين ، وإلا فإن المستقبل بينهما سيظل مشحوناً بالكراهية والعداوة .

ج ـ استرجاع الأراضي القومية المغتصبة :

إنّ المملكة الأرمنية كانت تمتدّ على مساحة واسعة قبل قدوم العثمانيين ، وقد كان الشعب الأرمني يسكن في مناطق هي عشرة أضعاف المنطقة التي يسكنها اليوم إذ تبلغ مساحة أرمينية الحالية حوالي 30 ألف كم2 ، وكانت أرمينية التاريخية تطلّ على البحر الأسود ، وتشمل الثلث الشرقي من آسيا الصغرى المؤلف حاليّاً من أذربيجان وتركيا والجزء الجنوبي من جورجيا ، فللأرمن حق أقوى في المطالبة أكثر من الأمة التركية فيما

يتعلّق بالمقاطعات الشرقية لتركيا الحالية لأن التاريخ يثبت بأنهم كانوا يشكلون دولة مستقلة فوق هذه الأراضي منذ قرون عديدة ، وهذا الحقّ هو ضمن حقّ الملكية التاريخية .

هذه هي أهم القضايا النضالية للشعبين العربي والأرمني بدءاً من العهد الحميدي الاستبدادي ، مروراً بالنزعة الطورانية لجمعية الاتحاد والترقي وما تبعها من عهود لا تزال تحاول طمس حقوق الشعبين معاً ، فما هي العلاقات التي تربط هذين الشعبين في نضالهما المشترك ؟

الفصل السادس

واقع العلاقات بين الشعبين العربي والأرمني

ليست العلاقات العربيّة الأرمنيّة وليدة العصر الحديث ، فالمواثيق والمعاهدات بين الدول الحضارية قديمة قدم الحضارات الإنسانية الراقية نفسها ، والتعاون بين الشعوب المتقدمة معروف منذ القدم ، ولكنّ الذي يجري أن شعوباً لا تمتلك هذا النوع من الحضارات ، وهي غير قادرة على إنتاجها ، تسعى إلى تدميرها لشعورها بعقدة النقص ، والمغول مثل على ذلك ، ولذلك فإن العلاقات العربيّة الأرمنيّة تعود إلى عهد الامبراطور ديكران الثاني (95 ـ 55 ق . م) الذي توسّع في فتوحاته ، ووصل إلى سورية ولبنان وفلسطين ، وتعاون الشعب العربي في هذه المناطق معه لحسن معاملته ، فكان الجيش الأرمني يضم في عهد هذا الامبراطور فرقة عربيّة قاتلت إلى جانبه ، وأظهرت كلّ بسالة ، كما كانت جيوش الملك الأرمني أردافست تحوي بعض الكتائب العربيّة ضمن صفوفها ، وكانت الملكة زنوبيا ملكة تدمر تعتمد اعتماداً كبيراً على جنودها الأرمن في جيشها العتيد متعدّد الجنسيات .

وينسب إلى الرسول العربي عهد أقامه بينه وبين ممثل الأرمن البطريرك ابراهام ، ومهما كانت صحّة العهد فإنه دليل على ما كان للأرمن من علاقات جيدة ومتميزة مع المسلمين في العهود الأولى ، ولذلك فإن عمر بن الخطاب حافظ على مواثيق العهد حين دخل مدينة القدس ، فصان ممتلكات الأرمن فيها وحافظ على أماكن عبادتهم كما جاء في العهد الميثاق ، و لم يخرج القائد المظفّر صلاح الدين الأيوبي على هذا العهد حين دخل القدس بعد وقعة حطين الشهيرة .

ولما كانت الفتوحات العربيّة لأرمينية أعطى القائد العربي سراقة بن عمرو كتاب الأمان إلى الأرمن ، ودخل بلادهم صلحاً وتوفي هناك سنة 30 للهجرة ، ومثل ذلك ما فعله غيره من الحكام والولاة والقادة ، وكان الخلفاء العرب في دمشق يستقبلون بطاركة الأرمن

استقبالاً حسناً ، ويلبّون كثيراً من مطالبهم .

ولكنّ الذي حدث مع الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد الحميد أنها خرجت على العهد المنسوب للرسول والذي منحه لبطريرك الأرمن ابراهام وسار بموجبه المسلمون العرب في تعاملهم مع الأرمن من بعده ، ولم ينقض السلطان عبد الحميد وخلفاؤه الطوارنيون العهد مع الأرمن وحدهم ، وإنما نقضوا العهد مع آل النبي وشعبه العربيّ المسلم الذي سلّم أمره إليهم ، وساعدهم على بناء صرح دولتهم ، ولذلك فإن مصير الشعبين العربي والأرمني واحد تجاه الأتراك ، وكان لا بد من أن تكون العلاقات بينهما ، كما كانت عليه الحال في أيّام الرسول والخلفاء والقادة العرب .

إن الشعبين تعرضا لحكم استبدادي واحد ، فأخذا يدافعان عن حقوقهما ، وكانت قضاياهما واحدة كما مرّ معنا من المطالبة بالحكم اللامركزي إلى المطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية ، فقد اغتصبت حقوق الشعب الأرمني وشرّد من أرضه ، وشرّد الأتراك الطورانيون الشعب العربي في بلاد الشام إلى مصر والمهجر الأمريكي ، وشرّد الأتراك فيما بعد (1939) الشعبين العربي والأرمني من لواء اسكندرونة العربي السوري ، ولا تزال الدولة التركية تهدّد شعبنا العربي في سورية والعراق بماء الفرات ، وهم يطمعون فعلاً في هذا الحق الطبيعي ، ولذلك فإننا سنستعرض العلاقات العربيّة الأرمنيّة حتى يومنا هذا .

أ ـ واقع العلاقات بين الشعبين في أثناء المجازر :

عاني الشعب الأرمني الجوع والتشرد والقتل في أرض الشتات ، ويروي نعيم بك في مذكّراته أنه شاهد أمام قرية رأس العين قافلة من البؤساء مؤلفة من مئات من النسوة والأطفال منتشرة على الضفة الأخرى من النهر . وكان الكثيرون من هؤلاء البؤساء يأتون كلّ يوم صباحاً إلى القرية للاستجداء . وكان غيرهم يعملون كحملة ماء من أجل الحصول على كسرة الخبز لسدّ رمقهم .

وكان هؤلاء المنفيون البؤساء ، يأوون تحت ا لصخور في الوديان ، أو تحت تعرجات الهضاب عندما كان الوقت صيفاً ، ولكنّ حين جاء الشتاء كان يسمع أنينهم في الليل ، فكانوا يموتون برداً وجوعاً . وكان سكان القرية من التشاتشان يسمعون حشرجة هؤلاء

الذين كانوا في النزع الأخير ، ولكنّ أحداً لم يكن يشفق عليهم ، ولم تكن تؤنبه نفسه أو ضميره .

وكانت البرقيات التي تصل من وزير الداخلية للقائمين على الأمر في حلب واضحة ، وهي تدعوهم إلى أن يتعجّلوا بالخلاص من الأرمن بأيّ شكل من الأشكال ، بل كانت السلطات التركية تعزل كلّ والٍ لا يقوم بتنفيذ هذه المهمة على أحسن وجه ، وهكذا عزل جلال بك وحلّ محلّه بكير سامي بك ، ولكنّه لم يكن هو الآخر من أنصار المجازر ، فعزل وعيّنت الحكومة بدلاً منه مصطفى عبد الخالق ، وكان الأخير مخلصاً للأهداف الطورانية ، فوضعت تحت تصرفه عبد الأحد نوري بك الذي كان يكره الجنس الأرمني ، وكان المساعد لعبد الأحد نوري بك أيوب صبري بك ، وهو رجل دموي وفاسد كما تصفه المصادر ، ثم وصل إلى حلب أمر جديد من وزارة الداخلية هذا نصّه :

« ألغي حقّ الأرمن في العيش في أراضي تركيا إلغاءً تاماً ، إن الحكومة التي تتحمّل كلّ المسؤوليات بهذا الصدد ، قد أمرت حتى بعدم ترك الأطفال الذين هم في المهد . وشوهد في بعض المقاطعات تنفيذ هذا المرسوم . وهكذا ، ولأسباب نجهلها ، تجري استثناءات بالنسبة إلى بعض الأفراد الذين بدلاً من أن يرسلوا إلى المنفى ، يتركون في حلب ، ومن جراء ذلك توضع الحكومة أمام صعوبة جديدة . فالنساء والأطفال ، ومهما كانت أسبابهم ، ومن غير قبول أعذارهم حتى لو لم يكونوا قادرين على التحرك ، أخرجوهم من هناك ولا تتركوا مجالاً للسكان للدفاع عنهم . ونتيجة للجهل ، فإن السكان يضعون مصالحهم المادية فوق المشاعر الوطنية ، فهم ليسوا بقادرين على تقويم السياسة العليا التي تنتهجها الحكومة بهذا الصدد . ونظراً لأن أعمال التصفية المحققة في أماكن أخرى بصورة غير مباشرة (الشدّة ، وتعجيل السير في الطريق ، ومتاعب الطريق ، وحالات البؤس) ، يمكن أن تتحقق عندكم بصورة مباشرة ، أبذلوا أقصى جهودكم دون أن تضيعوا الوقت . وأبلغت وزارة الحربية كلّ قيادات الجيش أن رؤساء المحطات العسكرية يجب ألا يتدخلوا في تنقّل المنفيين . أبلغوا

الموظفين الذين يؤمنون هذا العمل أنه يتوجب عليهم دون أن يخافوا المسؤولية ، أن يعملوا لبلوغ الهدف الحقيقي . تفضّلوا بإبلاغي كلّ أسبوع نتائج نشاطكم في تقارير بالشيفرة

ـ 9 أيلول 1915 ـ وزير الداخلية ـ طلعت » .

إن قارئ هذه البرقية يستنتج منها إصرار جمعية الاتحاد والترقي على إبادة الشعب الأرمني إلى النهاية ، ويستنتج منها أيضاً أنّ بعض الاستثناءات تجري في الولايات العربيّة وأن بعض السكان العرب يدافعون عن هؤلاء الأرمن .

وهكذا أخذت قوافل الأرمن تجري في الشتاء حفاة عراة من الباب إلى المسكنة ، وكانت الجثث على طول الطريق ، كما كانت الحقول تمتلئ بمزق الأشلاء والضلوع وكان طلعت باشا يرى أن يعاقب كخائن كلّ من يأوي أرمنيّاً ، ولذلك منع هذا الوزير أيّ أسرة مسلمة أن تتبنّى طفلاً أرمنيّاً ، كذلك فإن الإسلام لم يعد يفيد أيّ إنسان أرمني ، فأيّ أرمني دخل في الإسلام سيرسل هو الآخر إلى النفي بالرغم من إسلامه ، وهذا ما جاء في برقية رقم 762 إلى ولاية حلب بتاريخ كانون الأول 1915 : « أبلغوا الأرمن الذين يطلبون ، رغبة منهم في تجنب النفي العام (نحو الصحراء) اعتناق الإسلام ، أنهم لا يمكن أن يسلموا أبداً إلا بعد ذهابهم إلى منفاهم . » .

وعلى الرغم من هذه التشديدات التي نجدها في البرقيات والتي نفهم من مضمونها أن كثيراً من العرب كانوا يأوون بشكل سري بعض الأرمن ، لأن ثمة برقية بتوقيع قائد فيلق الجيش الثالث محمود كامل يحذر فيها بأنه سيتم إعدام أيّ عربي يحاول حماية أرمني بالشنق أمام داره وسيحرق بيته ، على الرغم من ذلك كلّه فإن الشعب العربي تفانى في حماية الشعب الأرمني ، يروى فائز الغصين الخبر التالي : « لما قربت من ديار بكر مررت بعشائر كثيرة من العرب فرأيت عندهم كثيراً من الأرمن رجالاً ونساءً وهم يحسنون إليهم . ومع أن الحكومة تنشر بين العشائر أن قتل الأرمن فرض ، فإنني لم اسمع أن أحداً من عشائر العرب قتل أرمنيّاً . مرّ بعض العربان على بئر فوجدوا نساءً وأطفالاً ألقوا في ذلك البئر وهم على آخر رمق من الحياة فأخذوهم معهم وعالجوهم إلى أن شفوا » ، ويروي صاحب كتاب

« شهادة الأرمن » أن الموظفين العرب ساعدوا الشعب الأرمني في محنته ، ورفض بعضهم رفضاً قاطعاً تنفيذ أوامر وزارة الداخلية معرضاً رتبته ومركزه للخطر ، ومنهم والي حلب جلال بك وسامي بك ، وحاكم دير الزور « سواد بك » الذي اهتمّ بالمهجّرين وعطف عليهم ، ولما شُدّد عليه أجاب :

« لتهجير الشعب تنقصنا وسائل النقل . أما إذا كانت الغاية المستهدفة هي إبادتهم فإنني لا يمكن أن أفعل ذلك ولن أسمح لأحد أن يقوم بذلك » .

ب ـ واقع العلاقات بين الشعبين العربي والأرمني في سورية ولبنان:

على الرغم من المآسي الكبيرة التي مرت بالشعب الأرمني ، وعلى الرغم من المحاولات المتتابعة التي استهدفت إبادته ووجوده شعباً وحضارةً ، فإنه ظلّ شعباً أصيلاً ـ حضاريّاً محبّاً للحياة والعطاء ، و لم يتحوّل إلى شعب يائس خمول ، بل حاول أن ينتج ويبدع ويسهم في المنفى بدوره الحضاري الكبير ، واستطاع أن يسهم إسهامات كبيرة في التقدّم العلمي والصناعي والتجاري والسياسي والاقتصادي في البلدان التي استضافته ، وخاصة في لبنان وسورية ، وقد طرق الأرمن في هذين البلدين ميادين العلم بكلّ همة ونشاط ، فأنشؤوا المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وأسّسوا الجمعيات والنوادي الثقافية ، وبرزوا في الصناعات المختلفة والتجارة والمحاماة والهندسة والطب والسياسة ، وبنوا الأديرة والكنائس في لبنان وسورية ، واشتركوا في ا الحياة السياسية والعسكرية ، وقدموا شهداء تجاه قضية العرب الأولى قضية فلسطين ، وكانو موضع ثقة العرب بهم في جميع هذه المجالات .

أما التطور الداخلي لجمهورية أرمينية فقد شمل هو الآخر المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ففي المجال الاقتصادي الاجتماعي تمّ القضاء على التخلّف ، وأصلح الخراب الذي أحدثته الحروب المستمرة ، ونهضت الصناعات المتطورة المختلفة من صناعات ثقيلة وصناعات خفيفة ، وتقدّمت الزراعة تقدّماً كبيراً ، وهذا لا بدّ له من تقدم العلم والثقافة والأدب والفن والموسيقى وغير ذلك ، وشهادة الرئيس القائد حافظ الأسد في أثناء زيارته لأرمينية في عام 1979 خير مثال على ذلك التقدّم وعلى التعاون بين جمهورية أرمينية والجمهورية العربيّة السورية ، فقد قال الرئيس الأسد :

« لقد كان شعبكم دائماً يتميّز بالحيوية والنشاط والجهد ، من أجل بناء أفضل ، سواء كان ذلك خلال وطنكم أم خارجه ، ويسرّني أن يكون كثيرون من هذه الجمهورية قد أمضوا فترة من الزمن في سورية عندما عادوا إلى هنا ، تركوا وراءهم سمعة جيدة ، وكانوا مخلصين في جهدهم وأوفياء في علاقاتهم ، وتجدر الإشارة إلى أنه من بين الروابط العديدة القائمة بيننا ، فإن الروابط العائلية قائمة بين الكثير من العائلات في سورية وأرمينية ، وهي تشكّل رابطة إنسانية هامة .

ويسعدني أن أشير إلى أن المواطنين في بلادنا من الأرمن السوريين ، يساهمون بشكل جيد وبحماسة ، في بناء البلاد ، ويشتركون مع سائر أبناء الشعب ، في الدفاع الشجاع عن حريتها وحدودها» .

وهذا ما شهد به رجالات عربيّة أخرى ، فمنير أبو فاضل نائب رئيس المجلس النيابي اللبنائي يشهد قائلاً :

« إننا في لبنان نشهد مدى ما قام به الأرمن منذ أن حلّوا ضيوفاً أعزّاء عليه ، من مساهمة فعّالة في تعزيز وتطوير النواحي الزراعية والصناعية والفنية والثقافية والفكرية ، وكيف أنهم أخلصوا ، وما زالوا لهذا البلد الذي بدوره كرّس لهم المواطنية اللبنانية ، فأصبحوا من دعائم بنيانه الأساسية ، كما أصبحوا ينبوع عطاء حضاري » .

وجاءت شهادة رشيد الصلح ، وهو نائب بيروت ورئيس وزارء سابق خير دليل على حيوية الشعب الأرمني وعطاءاته الحضارية ، فقال : « ونظلّ نذكر بأن إخواننا الأرمن ساهموا معنا ، بل أكثر منّا ببناء وطنهم الجديد لبنان ، ورفع راية الحرية والديمقراطية والكرامة فيه » ، وقد قدّم الشعب الأرمني في لبنان مثالاً على الوحدة الوطنية في أثناء الحرب الأهلية الأخيرة ، كما برهن هذا الشعب على تمسّكه بلبنان العربي الواحد والدفاع عنه ضد المحتلين الصهاينة ، وقد شهد لهم الكثيرون ، ومنهم فوزي أبو مجاهد أمين عام الاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين في لبنان .

وتجدر الإشارة أخيراً إلى التقارب الثقافي والعلمي والحضاري بين شعبنا العربي والشعب الأرمني ، وهو تقارب تاريخي مبني على الاحترام المتبادل والتعاون الصادق ، وهذا ما عبّر عنه الرئيس حافظ الأسد في أثناء زيارته لجمهورية أرمينية ، فقال :

« ما شاهدناه اليوم في متحف المخطوطات القديمة في مدينة يريفان لدليل على الاتصال التاريخي والحضاري والتبادل العلمي والثقافي بين شعبنا وشعبكم ، وأن لدينا فكرة واضحة عن تطوركم ونضالكم عبر التاريخ ، ولا شك في أنكم من خلال ذلك كلّه تستحقون التقدير والاحترام » .

الخاتمة

القاتل منذ عصر قابيل وهابيل واحد في فجوره وأساليبه واستغلاله ، فهو يرتكب جريمته بعد قصدية وتخطيط ، وينفّذها بأبشع الصور اللاإنسانية ، ثم يحاول أن يطمس معالم هذه الجريمة ، ويخفي الأدوات التي تشير إليها ، ويظهر أو يتظاهر بأثواب الحمل الوديع ، حتى إنه يدّعي - في أثناء غياب العدالة الإنسانية — بأنه المظلوم في هذه القضية أو تلك ، وبأنه الضحية التي ينبغي للضمير العام العالمي أن ينظر إليها بعين الرحمة والشفقة ، أو بأردأ الأحوال يتغاضى عن ا لمشكلة ويعلّقها على مشجب النسيان ، وإذا كشفت الجريمة فهو ينتقل من مجال التهمة إلى مجال الدفاع عن النفس ، ويسوّغ ما ارتكبته يداه ، ويحاول بشتى الطرق أن يخفي المقاصد التي دفعته إلى أن يفعل ما فعله ، وقد عرف التاريخ المعاصر ثلاث نزعات أرهقت الإنسانية في القرن العشرين بجرائمها المتواصلة : أولاها الطورانية التركية وما فعلته بحقوق الشعوب التي كانت تنضوي تحت رايتها عامة، والشعبين العربي والأرمني خاصة ، والنازية وما فعلته بحق الشعب الأوروبي في الحرب العالمية الثانية عامة ، والشعوب التي احتلت بلدانها في هذه الحرب خاصة ، والصهيونية التي اتخذت ممّا فعلته النازية ببعض اليهود الذين تعاونوا مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية حجة في إقامة وطن قومي لهم على حساب شعب آخر وأرض ليست مهجورة ، وارتكبت بعد ذلك بحقّ الشعب الفلسطيني والعربي مجازر يندى الجبين الإنساني لذكرها خجلاً ، وليس حزيران عنا ببعيد حين اعتدت بقصد التوسع على الدول العربيّة المجاورة ، واحتلت قسماً كبيراً من أراضيها ، ثم ادّعت أمام الرأي العام العالمي أن العرب يريدون بهذا الكيان وهذا الشعب « المسالم » شرّاً ، وهي التي تفاوض على تلك الأرض لتنفذ إلى غايات ومقاصد بعيدة جداً .

إن الأمتين العربيّة والأرمنيّة وقعتا تحت سلطات غاشمة حاولت إخفاء صوتها من الوجود ، وكانت هذه السلطات متنوعة في طغيانها وأساليبها وادعاءاتها ، فادّعت السلطة العثمانية —

الطورانية ـ الكمالية أنها جاءت إلى بلاد العرب لتحمي الإسلام والمسلمين ، وادّعى المستعمر الغربي أنه جاء إلى البلاد باسم الانتداب وصيّاً على أمم غير قادرة على النهوض وحدها ، فيساعدها على ذلك ، ويعود من حيث أتى ، وادّعى الكيان الصهيوني أنه عاد إلى أرض آبائه وأجداده ، وكان صوت القاتل مهيمناً وأعلى من صوت القتيل ، حتى إنه في كثير من الأحيان أخفى ذلك الصوت ، وظلّ صوته الأقوى والوحيد في الفضاء العالمي .

إنّ إعادة هذا الصوت إلى الفضاء العالمي يحتاج إلى وقفات أكاديمية ، ويحتاج إلى غربلة النصوص والوثائق وقراءتها قراءة محايدة ، ونظن أن هذا العمل الجماعي سوف يظهر للعيان أشياء جديدة وحقائق جديدة وأموراً لم تطرق من قبل .

إن قراءة البرقيات التي كانت ترسل بشأن إبادة الأرمن قراءة متأنية سوف تظهر عمق الجريمة النكراء التي ارتكبت بحقّ الشعب الأرمني ، وإن قراءة بعض هذه البرقيات تؤكد بما لا يقبل مجالاً لشاكٍّ بأن الجنس العربي كان مستهدفاً من الطورانيين بالزخم نفسه ، وبالحقد نفسه ، وكان ينتظره المصير نفسه الذي وصلت إليه القضية الأرمنية ، ولكنّ ما كلّ ما يتمناه المرء يدركه ، فقد خيّبت الحرب العالمية الأولى والوعي العربي لما يخطّط له في الخفاء ، ما خطّط له الطورانيون وأسيادهم الصهاينة والألمان ، وجاء مكذّبة لآمالهم .

ولذلك كلّه فإن التعاون النضالي بين الشعبين العربي والأرمني هو تعاون لازم وضروري ، وينبغي له أن يكون عضويّاً ومثمراً ، فالعدو لا يزال قائماً ، والمقصدية لا تزال ، وهو يعمل في السر والعلن للنيل من هذين الشعبين معاً .

هوامش الدراسة

1 - سميت المدينة بثلاثة أسماء تختلف باختلاف عصورها وأوضاعها السياسية وهي القسطنطينية والآستانة واستانبول ، وسنلتزم بهذه التسميات الثلاث وفق أزمانها.

2 - انظر هنري مورغنطاو . قتل أمة ص / 24 .

3 - المرجع نفسه ص /90 .

4 - انظر هذا النص في بارور يرتسيان : مجازر الأرمن ص /41 .

5 - المرجع نفسه ص /42 .

6 - أنظر ديورانت . قصة الحضارة المجلد الرابع . الجزء الثاني .

7 - النيتشوية فلسفة دعا إليها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844 – 1900) وعدّت أحد الأسس التي قامت عليها النازية فيما بعد ، وترجع في خطوطها الكبرى إلى مبدأ عام هو فكرة الشعب المتفوق الذي يحق له عن طريق القوة والسيطرة والإكراه أن يخضع غيره من الشعوب ، فلا رحمة ولا رأفة ولا ضعف . ويتفرع عن هذا المبدأ ملمحان : عبادة الأجداد ورتبة الإنسان « السوبرمان » و السعادة في هذه الفلسفة مجرد الشعور بالقوة ، والحضارة لا تقوم إلا على البطش والقسوة ، من هنا دعت إلى الحرب والقتل والتدمير ، وواضح أن هذه هي ذاتها أفكار النازية ، كما أنها أفكار الطورانية والصهيونية فيما بعد .

8 - انظر جهاد صالح - الطورانية التركية ص /34 -35 .

9 - انظر أسعد داغر . ثورة العرب ص /159 - 160 .

10 - المرجع نفسه ص /151 - 152 .

11 - المرجع نفسه ص /157 .

12 ـ انظر ديورانت المجلد الأول . الجزء الثاني ص /303 .

13 ـ انظر صالح زهر الدين . الأرمن والعرب بين الطورانية والصهيونية ص /39 .

14 ـ انظر ثورة العرب ص /28 .

15 ـ انظر كوتولوف . تكون حركة التحرر الوطني ص /248 .

16 ـ المرجع نفسه ص / 249 ـ 250 .

17 ـ انظر ثورة العرب ص /159 .

18 ـ انظر نعيم اليافي . جمال باشا السفاح . الفصل الثاني .

19 ـ انظر النص الكامل لهذا الاعلان في الجنان ج /16 ص / 487 ـ 488 ، وكتب الاعلان في 31 أيّار عام 1879 .

20 ـ انظر الكسندر كشيشيان . المشانق العربيّة ص / 150 ـ 151 .

21 ـ المرجع نفسه ص /48 .

22 ـ المرجع نفسه ص /57 .

23 ـ المرجع نفسه ص / 60 ـ 61 .

24 ـ المرجع نفسه ص / 140 .

25 ـ انظر مورغنطاو . مرجع سبق ذكره .

26 ـ انظر مواد المعاهدة في : مجلس كنائس الشرق الأوسط . أرمينية المأساة المستمرة تحت عنوان حماية الأقليات ص /50 .

27 ـ انظر القضية الأرمنية ص /156 .

28 ـ انظر قتل أمة ص /119 .

29 ـ انظر شهادة الأرمن ص /37 .

30 ـ انظر مذابح الأرمن ص /51 .

31 ـ انظر أرمينية شعب وقضية ص /237 .

32 ـ انظر قتل أمة ص/ 86 .

33 ـ انظر الكتاب ص /21 ـ 22 .

مراجع الدراسة

1 ـ بامبوكيان ، يروانت . شهادة الأرمن . ترجمة الأب كيغام خاتشريان . انطلياس . 1985 .

2 ـ بدوي ، عبد الرحمن : الموسوعة الفلسفية . بيروت . المؤسسة العربيّة ، ط1 ، 1979 .

3 ـ بطريرك الأرمن . اعلان بطريرك الأرمن . مجلة الجنان ج 16 ، بيروت 1879 .

4 ـ الجبرتي ، عبد الرحمن : عجائب الآثار . القاهرة مطبعة قاسم 1287 هـ .

5 ـ داسنابيديان ، هراج . القضية الأرمنية . بيروت 1984 .

6 ـ داغر ، أسعد مفلح : ثورة العرب . حلب . مطبعة مطرانية الأرمن الأرثوزكس ، ط2 ، 1989 .

7 ـ دروزة ، محمد عزت . نشأة الحرة العربيّة الحديثة . صيدا . العصرية ، ط2 ، 1971 .

8 ـ ديورانت ، ول . قصة الحضارة ، الكتابان الأول والرابع .

9 ـ رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون . دمشق . أطلس ، ط2 ، 1993 .

10 ـ زهر الدين ، صالح . الأرمن والعرب بين الطورانية والصهيونية . بيروت ، 1994 .

11 ـ شاوارش ، طوريكيان . القضية الأرمنية والقانون الدولي . ترجمة خالد الجبيلي. اللاذقية . دار الحوار . 1992 .

12 ـ الشدياق ، أحمد فارس . الساق على الساق . باريس 1855 .

13 ـ صالح ، جهاد . الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية . بيروت .دار الصداقة،

ط1 ، 1987 .
14 ـ عربش ، سمير ، أرمينية أرض وشعب . بيروت ، دار الريحاني ، 1991 .
15 ـ الغصين ، فائز . المذابح في أرمينيا ، حلب ، مطبعة أريويللك ، 1991 .
16 ـ قسطون ، وديع . الإفرنج في حلب في القرن الثامن عشر. حلب ، 1969 .
17 ـ كشيشيان ، الكسندر ، (مترجم) المشانق العربيّة والمجازر الأرمنية . دمشق . دار أسامة ، ط1 ، 1992 .
18 ـ كلشي ، حسن . الوجه الآخر للاتحاد والترقي ، ترجمة : محمد الأرناؤوط ، إربد .
19 ـ الكواكبي ، عبد الرحمن . أم القرى . القاهرة . المطبعة المصرية 1310 هـ .
20 ـ كوتولوف ، ل . ن . تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي . ترجمة : سعيد أحمد . دمشق . وزارة الثقافة 1981 .
21 ـ مجلس كنائس الشرق الأوسط . أرمينية المأساة المستمرة . بيروت 1985 .
22 ـ المدور ، مروان . الأرمن عبر التاريخ . دمشق . دار نوبل ، ط2 . د . ت .
23 ـ مطرانية الأرمن الأرثوذكس . صفحات من تاريخ الأرمن . حلب . 1980 .
24 ـ مورغنطاو ، هنري . قتل أمة . ترجمة الكسندر كشيشيان ـ دمشق . دار أسامة ، د . ت .
25 ـ هاسلب ، جون . السلطان الأحمر . ترجمة فيليب عطا الله . بيروت . دار الروائع . 1974 .
26 ـ هونكة ، زيغريد. شمس العرب تسطع على الغرب . بيروت . دار الآفاق . ط8، 1968 .
27 ـ اليافي ، نعيم . مجازر الأرمن وموقف الرأي العام العربي منها . اللاذقية . دار الحوار . 1992 .
28 ـ اليافي ، نعيم . جمال باشا السفاح . اللاذقية . دار الحوار ، 1993 .
29 ـ يرتسيان ، بارور . (أعدّ) مجازر الأرمن (من مذكّرات نعيم بك) . بيروت .

دار الفارابي . 1986 .
30 - BARBY , HENRY , Au pays de l`epouvante: l`Armenie , Martyre Beyrouthe - 1972 .
31 - BOGHOSSIAN , ROUPEN - Le conflit Turco - Armenien - Beyrouthe - 1987 .
32 - Lepsius , DR . Johannes - Rapport secret sur les massacres d`armenie - Beyrouthe- 1981 .
33 - Mandelstam , Andre , La societe des nations et les puissances devant le problem Armenien - Liban - 1970 .
34 - Ternon , Yves - Les Armeniens histoire d`un g`enocide - Paris - Seuil 1977 .

محتويات الكتاب

صدر من سلسلة الدراسات الأدبية والتاريخية

1 - صورة التركي في الشعر العربي الحديث - (1870 - 1920)

تأليف: الدكتور نعيم اليافي وماهر المنجد - 1995

2 - الذئب الأغبر - قراءة نقدية في الأدب الحديث

تأليف: ابراهيم الخليل - 1995

3 - أنين السرو الحزين (تجليات الآخر الأرمني في الرواية العربية)

تأليف: أسعد فخري - 1995

4 - نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني

تأليف: الدكتور نعيم اليافي والدكتور خليل الموسى - 1995



هذا الكتاب

لم تكن الغاية من تأليف هذا الكتاب إعادة إنتاج ما كتبه المؤرخون عن طبيعة العلاقات بين الشعوب الثلاثة ... العرب والأرمن والأتراك العثمانيين ، ولا تتبعها وما انتهت إليه ، فقد ألفت في ذلك الكتب الكثيرة ، وما تزال تؤلف بقدر ما كانت الغاية اراءة مشهدية لما حدث ، واستخلاص النتائج مما حدث ، والتطلع إلى الأمام بعدما حدث ، من هنا وطدنا عزيمتنا على اختيار الجوانب الملائمة من العلاقات التاريخية حتى نحقق بها غايتنا ، ومن هنا أيضا كانت خطتنا التي رسمناها للكتاب في فصوله المتعاقبة ومادتها المتداخلة في آن .

إن علاقتنا بالعثمانيين الأتراك علاقة تاريخية مضت بمثل ما مضت عليه من سطوة وسيطرة وإذلال واحتلال ، ذقنا خلالها نحن العرب وغير العرب كل أنواع الظلم والاضطهاد والاستغلال ، لذلك ظلت صورة التركي في أذهاننا صورة الرجل الكريه ، صورة الغاصب ومستلب الأرض والقيم والكرامة . أما علاقتنا بالأرمن فهي علاقة جغرافية ، نتعايش عبرها فوق تراب واحد ، تحت سماء واحدة ، يضمنا وطن وتحتوينا صلات أخلاقية ووشائج ، ثم إننا كلانا خضع لمحتل واحد ، ذاق منه الأمرّين ، ناضلنا من أجل حقنا في الحياة معاً ، وجاهدنا في سبيل الحرية والاستقلال معاً ، وبذلنا الغالي والرخيص للوصول إلى هويتنا وانتزاعها عنوة معاً ، فهل علينا جناح أن نكتب عن نضالنا المشترك نحن العرب والأرمن ضد مستعمرنا الغاشم الأتراك العثمانيين ؟ .

في هذا الكتاب نقرأ قصة الصراع من أجل الحق والخير والجمال ، من أجل الهوية والاستقلال والحرية.

نادي الشبيبة السورية ـ اللجنة الثقافية ـ حلب ـ ص.ب. 3699


دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب. 1018 ـ هاتف 422339 ـ 412935